
مع العسكريين
بكباشى
السيّد فرج

بكباشى

السيد فرج

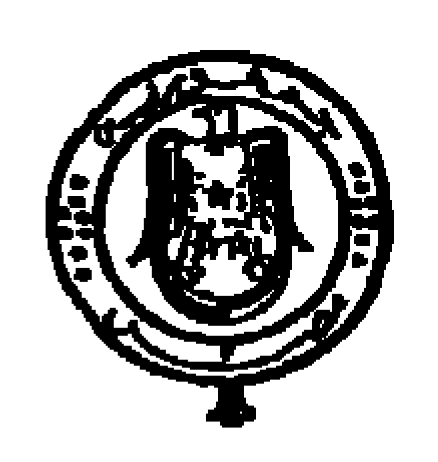
مع العسكريين

تعال معى إلى صفحات التاريخ ...
أقدم لك أمثلة لا يحصيها عد ...
لقادة أقوياء أذكياء ...
قادة ينبضون شجاعة وحكمة، وإخلاصاً ووطنية
قادة ذوى أخلاق ومبادىء ومثل ...
سيوفهم تقطر دماً، وقلوبهم تفيض خيراً ومحبة.

الطبعة الثالثة: ديسمبر ١٩٥٧

الناشر: شركة الشمرلى. القاهرة

مطابع شركة الشمرلي بالقاهرة تليفون ٧٨٩٧٨



رئيس مجلس الوزراء

السيد البكباشى السيد فرج

قائد مركز تدريب المشاه

طالعت كتابك القيم " مع العسكريين " ، فوجدته حافلا بالموضوعات التى يحتاج اليها الجيل الجديد ، لينشأ نشأة صحيحة على أساس سليم ، يتجاوب مع روح هذا العهد فقد تناولت الجنديه وبعض أبطالها بعرض دقيق رائع ، وتحليل عميق بارع ، متتبعا خطوات نهوضهم ، مترسما أركان خططهم ومعللا درجات مجدهم . وان هذا لخير سبيل لبناء شخصية شبابنا على أسس واقعية ، وأقوى حافز لهم على التشبع بالروح العسكرية التى تقوم على النظام ، واحترام القانون ، والاعتماد على النفس ، والمساهمة فى التعمير والانشاء والانتاج ، فيصبح كل منهم مواطنا صالحا ، وهذا من أهم اهداف الثوره .

وانى ازاء انتاجك هذا الذى بلغ حقا لا زيادة فيه لمستزيد ، أشكرك على ما قمت وتقوم به من عمل مجيد .

رئيس مجلس الوزراء

[signature]

٥ فبراير سنة ١٩٥٦ .

تقــــديم

كمـال الدين حســين

وزير التربيــــة والتعــليم

يُسعدنى أن أقدم هذا الكتاب إلى قرائه، ولست أشك أنهم سيحصِّلون منه فائدة ويستشعرون أثراً حميداً . .

كتاب ألّفه جندى عن الجنـدية وبعض أبطالهـا فى التاريخين القريب والبعيد، وما أحوج ناشئتنا فى هذا الطور من تاريخ وطننا العزيز، أن يقرأوا عن الجندية وعن أبطالها، ليستشعروا روحاً نريد أن يستشعروها، ليبلغوا بأمتهم ما نريده لهم ولها من القوة، ومن المجد والعظمة، ومن السبق فى شتى الميادين . .

إن الجنـدية ليست هي هـذه التمرينات الجسدية أو الآلية التى يمارسها الشباب لأول عهدهم بها، وإنما هذه مقدماتها وأول الأسباب

إليها : أما الجندية الحقيقية فهى الارادة الغالبة . وهى الخطة المحكمة التدبير ، وهي تنور الهدف البعيد والسعى إليه على أساس من التقدير والوعى ، وهى إماتة الفردية لتكون مصلحة الجماعة هى العليا ، وهى الفداء فى أعلى مراتبه ، وهى بكل ذلك إيمان بالمثل العليا ، وبالفضيلة وبالوطن ، وبالله ، وتلك هى المبادىء التى نريد أن يتربى عليها شبابنا .

ولتمجيد هذه الفضائل جميعاً أنشأ البكباشي السيد فرج هذا الكتاب الذى لا أشك فى عظيم فائدته وعميق أثره .

أسأل الله له التوفيق فيما يحاول من أسباب لتربية الشباب والناشئة .

والعزة لمصر .

[signature]

١٨ / ١٢ / ٥٥

لماذا بكى الأسكندر وضحك هانيبال

هل يضحك القادة ويبكون ، ويحسّون بالحياة كما يحس بها الآخرون ؟ أم ترى تغلب عليهم طباع الدم والحديد فلا يكون للعواطف البشرية فى نفوسهم مكان ؟

لقد شاع أن الصفات الغالبة على العسكريين هى القسوة والعنف ، وأن الجندى يفكر بوحى السيف ويتكلم بلغة المدفع ، فإذا أحب فحب السيطرة والتملك ، وإذا حكم فحكم الغالب . . . والويل للمغلوب !

أما الحقيقة والتاريخ فيشهدان بأن الجندى الأصيل إنما ينطوى على قلب نبيل ، وأن هذا الوجه الذى لفحته أحداث الحرب إنما يخفى وراءه نفساً عالية وإنسانية فياضة وعواطف رقيقة .

وما الجندية إلا الإنسانية فى أرقى درجاتها . . . أليست هى الجود بالنفس فى سبيل الغير ، والإقدام على الموت لاستبقاء الحياة للأهل الوطن ، وهل يصح فى الأذهان أن يكون الجندى الأصيل ، الذى يعمل لغيره ورأسه على كفه إلا رجلا كبير النفس عظيم الروح ، لا تفتنه المغانم ، ولا يغلبه الطمع الدنيوى ؟

تعالى معى إلى صفحات التاريخ أقدم لك أمثلة لا يحصيها عد ، فترى قادة أقوياء رشقاء . قادة ينبضون شجاعة وحكمة وشبابا وحباً ، قادة علماء وأدباء ، وطنيين مصلحين ، أبناء وآباء بررة ، سيوفهم تقطر دما ، وقلوبهم تفيض خيراً ورحمة .

كان الأسكندر المقدونى قائداً شاباً وملكا على بلاده وهو فى صحوة العمر ، واستطاع بشجاعته وكفاءته أن يدفع عن وطنه غائلة الأعداء المتربصين به الطامعين فيه ، ثم خرج والنصر فى ركابه يوطد عرشه ويؤمن مستقبل قومه حتى أصبح سيد الدنيا . . . فلم يغيره هذا الملك العظيم ولم يفسده هذا المجد الذى لم يحلم بمثله حالم .

أنظر إليه فى أوج مجده وقمة شهرته وفورة شبابه ، وقد هزم دارا ملك الفرس هزيمة نهائية ساحقة ، وراح ضباطه وجنوده يقتسمون الغنائم والأسلاب دون أن يأخذ شيئاً لنفسه ، فلما أبدى أحدهم عجبه لمسلكه قال الأسكندر :

لقد استبقيت لنفسى كنزاً نفيساً . . . هو الأمل .

لما جىء له بزوجة دارا — وكانت أجمل نساء عصرها — رفض أن تدخل خيمته وراح يبكى ، ثم أمر بأن تعود إلى قصرها معززة مكرمة .

<u>وهكذا انتصرت البطولة الحقة فلم يسكرها خمر النصر ولم تهزمها شهوات الشباب</u>

ولم يكن الأسكندر قائداً همجياً مفتوناً بالغزو مدفوعاً بحب الغلبة والسيطرة ، وإنما كان ملكا مهذباً مصقولا أدبته أمه أوليمبيا وأبوه فيليب فأحسنا تأديبه ثم تلقاه فيلسوف عصره أرسطو فجعله محباً للعلم والأدب والفلسفة ، فكان يقول :

لو لم أكن الاسكندر ، لوددت أن أكون ديجونيس .

كان الأسكندر يبنى المدن وينشر العلم ويذيع المدنية أنى أسال دم الفتوح . . .
وعند ما خلص مصر من نير الفرس أعاد لها مكانتها الدينية واستقدم المهندس

اليونانى « دينوقراط » فبنى مدينة الأسكندرية عروس البحر ، وأثبت تاريخ عشرين قرناً من الزمان بعد نظره فى اختيار هذه المدينة التاريخية التى خلدت إسمه .

فالأسكندر لم يكن قائد جيش ليس غير ، وإنما كان — كما وصفه دكتور طه حسين — قائد فكر قبل كل شيء وفوق كل شيء . . . كان يضرب بسيفه ويرى بعقله ويعمل بإنسانيته ، فهو قائد لم ترق إلى نفسه الشهوات حتى وهو فى أوج قوته وشهرته وانتصاره ، وهو خير نموذج لعظمة الجندية وخير معبر عن روحها وتقاليدها .

* * * *

وهذا هانيبال القائد الإفريقى ، الذى لم يتعلم فى مدرسة ، ولم يعرف الحرب على الورق والخرائط ، وإنما عاش فى الحرب بين المقاليع والحراب ، وشب فى أحضانها يرى التصارع والتبارى ويشهد مصرع أبيه ، ثم يحملون له رأس أخيه . . فيستمر فى طريقه لأداء واجبه وتخليص بلاده من نير الغاصب المستبد ويقول : « إننى لا أنظر خلفى مهما يحدث » .

وقد انتصر هانيبال فى أعظم وقائع التاريخ فلم يفسده النصر ولم تظهر فى حياته الشهوات والملذات ، ثم انهزم هانيبال فلم تغيره الهزيمة ولم تذهب بشجاعته وصفاته وعسكريته .

أنظر إليه وقد استدعاه القائد المنتصر « سيبيو » فسأله :

— من هو أعظم جندى فى العالم ؟

فأجاب هانيبال : الأسكندر المقدونى .

فسأله طامعاً : ومن الذى يليه ؟

قال : أنا !!

هكذا الجندى الشجاع حتى فى حضرة هازمه .

* * *

وفى تاريخ هانيبال دروس أنفع وأوقع من الدروس العديدة التى يستذكرونها إلى اليوم فى المعاهد الحربية عن خططه فى « كانا » فإن هانيبال كان يحارب ليدفع عن وطنه ظلم روما فعبر البحر والجبل وخاض السهل والوعر ليهزم الرومان فى عقر دارهم . . . وإذا برجال الحكم فى بلده قرطاجة يكيدون له ويمتنعون عن مساعدته ويسخرون ويضحكون ملء أشداقهم كلما تورط فى مشقة أو بعث إليهم بطلب لإمداده .

كان هانيبال يجاهد ويشقى ويبكى . . وهم يضحكون !

فلما دارت الدائرة وانهزمت جيوشهم وديست أراضيهم وضاعت مراكزهم

بكى الحكام . . وضحك هانيبال !

إثبتـــوا ... أو موتوا...

قال القائد لجنوده : إثبتوا أو موتوا ...

وسجـل التاريخ . .

قائد يأمر جنوده بالاندفاع فى حومة الموت !

وجنود يلبون النداء ، وهم يعلمون أنه . . الموت !

فعل هذا جنود اسبرطة حين وطدوا العزم على سد الممر الذى اعتزمت القوات الآسيوية اجتيازه لكى تغزو اليونان . وكانوا يعلمون سلفاً أنهم لا قبل لهم بصد هذه الجحافل العاتية التى أقبلت والموت يتقـــدم ركابها ، ومع هذا فقد استبسل الثلاثمائة أسبرطى... ومرّ الغزاة على جثثهم !

وفعل مثله جنود الإسلام فكانوا يقبلون على الموت لكى توهب لهم الحياة ، وكان لهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة .

قال الإمام على كرم الله وجهه « إننا كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العـدو منه »

وقد كان المجاهدون يفضلون الموت فى الحرب كقول عبد الله ابن الزبير :

« إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف ».

وفى الحرب النابليونية كان مارد الحرب يشير بيده، أو بطرف عينه فيندفع جنود فرنسا إلى وادى الموت وهم يهتفون : يحيا الإمبراطور.

وكان ولنجتون يشهد الموت وهو يحصد جنوده وجنود عدوه فى الحلقة الأخيرة من معركة « ووترلو » فيصدر الأمر اليومى :

« القتال إلى آخر رجل منا ».

وفى الحرب العظمى الأولى كان لودندورف يرى بعينيه الخاتمة المروعة لهزيمة ألمانيا، فلما سئل عن رأيه فى الموقف كان جوابه النهائى :

« القتال إلى النهاية ... إلى الموت »

وفى التاريخ أمثلة عديدة لمعارك كبرى أو صغرى خاضها الجنود، وهم يعلمون أنهم ملاقو الموت .. فلم يترددوا، بل اندفعوا، وكأنهم يفرون إليه !

ترى ما الذى يدفع الجندى إلى الموت ؟

ما الذى يجعله يخاطر بحياته بكل شجاعة.

ليس هناك كائن من كان يحب الموت، فما الذى يدفع الجندى إلى لقاء الموت ؟ هل هو يأمل فى المجد والغنم، فيكون إقدامه نوعاً من المغامرة، أو المقامرة : فإذا

بحجت لتى نصيبه من غنائم الميدان وأسلاب المعركة إلى جانب نصيبه من الشهرة والفخار فيتحدث عنه الناس — كما كان نابليون يصوِّر لجنوده — وإذا سار فى الطريق أشار إليه المارة وقال قائلهم : لقد كان من جنود الجيش الكبير ..!

هل هو يتفانى فى الإخلاص لقائده ، أو يكون قد تأثر بما أحدثه فيه قائده من إقدام وبسالة ... فيصبح رهن إشارته ، ولو أشار إلى حومة الموت .

هل يكرّ ويستبسل لأنه يحارب فى سبيل قضية عادلة ، يؤمن بها ويصرّ على نصرتها ، ولو دفع حياته عربوناً لها ؟

هل هو يسير بحكم التقاليد والنظام فيتقدم مع المتقدم ويستبسل مع المستبسلين كما تعود فى العظيم واليسير من نظم الجندية وضبطها وربطها ؟

هل هو يحارب إلى حد التضحية لأنه يعلم سلفاً بعظم الأجر والثواب ، وقد قال تعالى « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » . « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله » .

* * *

لقد بحث هـذه الظاهرة كثيرون من العلماء والقادة ، وذهب كل من هؤلاء مذهباً فى الدوافع التى أوردناها .

ومن رأى المارشال ويفل أن « المجد والغنم » لم يعودوا يصادفان هوى من قلب

الجندى الحديث . . والواقع أنه لا يوجد اليوم الكثير من المجد والغنم !

وهو يقول : إن الجندى لا يهرب لأنه يحارب فى سبيل قضية عادلة ، ولا يحجم لأن القضية غير عادلة ، ولكنه يتقدم بروح الجماعة المندفعة ، وبما بثّه فيه قائده من حرارة وحماسة .

ويقول ويفل : إن « التقاليد والنظام » هى الأصل الحقيقى للاستبسال والتضحية فإن للحياة العسكرية طابعها المميز وروحها الخاصة ، وهو ما يطلق على مجموعه كلمة « الضبط والربط » فيصبح العمل غريزيا ، ولو انتهى إلى الموت .

وقد أجمع الكتاب الذين نشروا آراءهم فى الموضوعات النفسانية أن روح الجندية هى التى تسيطر على الجندى وتجعله يتقبل المشقة ويستطيب العناء ويقبل على الموت .



الأسكندر المقدونى

رُبَّ هزيمة أشرف من انتصار

من الظاهرات التى تستوقف النظر فى تاريخ كبار القادة أن النصر وحده لم يكن الوساطة إلى الخلود ، وأن الهزيمة التى منى بها بعض القادة لم تحل دون فوزهم بالشهرة الداوية ووصفهم بالعبقرية وتخليدهم وذيوع صيتهم رغم مرور عشرات ومئات السنين .

وقد حدث أن دخل المارشال ويفل يوما إلى قاعة الدرس فى إحدى الجامعات العسكرية وفى ذهنه فكرة معينة . كتب على السبورة كلمة « سيبيو » وانتظر قليلا ثم سأل الطلبة عن مرادها فلم يعرف أحد ... ثم كتب كلمة أخرى « هانيبال » فعرفه الجميع وقالوا إنه القائد القرطاجنى الأشهر بطل معركة « كانا » .

وتحققت فكرة ويفل التى أراد أن يبثها فى طلبته بطريقة مبتكرة إذ أوضح لهم أن انتصار « سيبيو » الرومانى على هانيبال القرطاجنى لم يقدمه عليه فى قائمة البطولة ، وأن هزيمة « هانيبال » لم تحل دون وضعه فى الصف الأول بين عباقرة العسكريين .

وكان هذا أيضاً نصيب نابليون بونابرت ، وهو أشهر عبقرية عسكرية ، فقد انتصر عليه ولنجتون فى معركة « ووترلو » التى أسدل بعدها الستار على الحروب النابولونية ... وإن كان نابليون قد استمر معبود الجماهير إلى اليوم بينما لم ينل ولنجتون سوى مقعد غير ملحوظ فى الصف الثانى .

ولم يكن القادة الذين أحرزوا النصر فى الحرب الأهلية الأمريكية أفضل من من الجنرال «روبرت لى» الذى يعتبر من أعظم قادة تلك الحرب من الجانبين بغير استثناء .

وفى الحرب العالمية الثانية وعلى مقربة من ديارنا وقف خصمان عنيدان يتنازعان كأس النصر فى معركة كبرى كان روميل أحد الرجلين ومونتجمرى ثانيهما وكانت المعركة « العلمين » إحدى المعارك الفاصلة التى يتوقف عليها مصير الحرب .

أما الظروف التى كان عليها الخصمان فكانت جد مختلفة لا تترك مجالا لمجرد المقارنة . ففى ناحية كانت قوات الحلفاء على تفوق كبير فى العدد والمعدات وعلى مقربة من قاعدة ضخمة مأمونة المواصـــلات فضلا عن تفوق جوى بلغ أشده ! وفى الناحية الأخرى كان فيلق إفريقيا الألمانى يفتقر إلى الامداد من الرجال والأسلحة والوقود ، ويبتعد عن قاعدة تموينه مئات الأميال ، عبر مواصلات مهددة ومعركة جوية خاسرة وحلفاء مسلوبى الهمة ؟ !

وحاول روميل أن يقنع القيادة العليا الألمانية بتحويل بعض الاهتمام للميدان الإفريقى فلم ينجح مسعاه لأن معركة ستالينجراد كانت تستحوذ على كل الاهتمام وتستأثر بكافة الامدادات والممتلكات .

وجاء تشرشل إلى مونتجمرى ومعه بشرى الإمدادات السخية من أحدث الطائرات والدبابات والمدافع الأمريكية . أما رومل فجاءه إخطار من هتلر يقول فيه : « فى مثل هذا الموقف الذى وجدت نفسك فيه لا يمكن أن يكون هناك أى تفكير إلا الصمود وفى دفع كل سلاح ورجل إلى المعركة ... وليس أمامك إلا أن تبصر قواتك بشىء واحد : « النصر أو الموت » .

وعرف الخبراء بتقدير الموقف نتيجة معركة العلمين قبل حدوثها ، فقد كانت معركة ذات جانب واحد ، وكان المنتظر أن تكون المعركة واحدة ونهائية ... ولم يكن فى وسع أى قائد فى الوجود منع الهزيمة .

وسجل روميل تلك الفترة الحالكة فى إحدى رسائله إلى زوجته فقال :

« إن المعركة تشتد وطأتها علينا ، ولقد دفعتنا حشود العدو عن مواقعنا ، إنى أبذل جهداً بالغاً لإنقاذ الجيش ... لقد قضيت الليل مستلقياً مفتوح العينين أعمل فكرى فى طريقة لإنقاذ قواتى ... إننا نواجـــه أياما فى غاية السوء ، بل أسوأ ما يمكن أن يمر بإنسان » .

وجاءت المعركة مخيبة للظنون ، فقد أحرز الحلفاء نصراً حربياً ولكن القوات الألمانية لم تقهر ولم تستسلم واستطاع قائدها العبقرى أن يمنع الدمار ويتفادى الكارثة ويمرق بجيشه فى الوقت المناسب وبأقل خسائر ممكنة . وفى مثل هذا الموقف السىء تبرز فطانة القائد وتتضح عبقريته ، ولهذا خرج القائد المهزوم من بوتقة الشدة أكثر صفاء وأشد لمعاناً فاحتضنه التاريخ ووضعه فى الصف الأول بين عباقرة الحرب فى كل زمان .

وقد سجل له الأنصار والخصوم أنه كان قائداً فوق مستوى القادة ووصفه المارشال ويفل بأنه ظاهرة غير عادية ، وفلتة نادرة فى التاريخ العسكرى .

نابليون فى الكرملين

— ما هو أقصر طريق إلى موسكو ؟

— كل الطرق توصل إلى روما ... ياسيدى .

... إن شارل الثانى عشر ذهب بطريق بولتافا !

سمع الأمبراطور نابليون هذا الرد من الأسير الروسى وانطلق فى طريق لا ترى نهايته . .

وكان قد جاء لتوه من معارك متوالية فى النمسا وألمانيا وها هو ذا يغزو روسيا . . فقد كان أسرع رحالة فى زمانه ! وقد عقد الأمل على معركته المقبلة ، فاذا انتهى من الجيش الروسى تكون أوربا قد ركعت عند قدميه ، وطوى خريطتها فى مكتبه لعدة سنوات ... وتبقى انجلترا وحيدة لمعركة واحدة .

كان نابليون يتقدم ويتقدم دون أن يجد الجيش الروسى الكبير ويمضى فى مناوشات سريعة متوالية ، ثم يبدو له الطريق خالياً ! وتظهر قوات روسية فيسرع إليها ولكن المعركة التى ينشدها لم تحدث أبداً ! ؟

فى كل مساء يتوقع المعركة فى الصباح ، وفى الصباح لا يجد أثراً للعدو الماكر . وتتخابث روسيا وتضحك بريطانيا !

وفقد نابليون ثلث جيشه قبل أن يشتبك فى المعركة ؟!

وأخذ يعجب لتضحية الروس بمدنهم ومنشآتهم ، ثم التقى الجمعان فى بوردينو — على سبيل التجربة ! — وخلفت المعركة ٧٠ ألفاً بين قتيل ونصف قتيل !

ووصل نابليون إلى موسكو . .

وقال الامبراطور : موسكو ، حانت ساعتك !

ووقف مشبوك اليدين ينتظر مفاتيح المدينة ، يأتى بعدها عمدة موسكو وينتظر الطعام الشهى للجنود والثياب الثقيلة . . .

وطال به الانتظار دون جدوى وأخيراً ركب ومعه أركان حربه قاصدين الكرملين . . وجد المدينة صامتة والطرق خالية والأبواب مفتوحة . . وليس من إنسان !

ثم رأى شيئاً رهيباً : النار ... إن موسكو تحترق !

وفغر نابليون فاه ، وتلاشت أعصابه واضطرب حبل تفكيره وأخذ يصيح : يالها من فظاعة . . يدمرون بيوتهم بأيديهم . . هذه القصور ! أى قرار جنونى . أى ناس هؤلاء ... النار فى الكرملين ؟ !

* * *

بالأمس كان جنود نابليون يتساقطون من شدة الحر فى صحراء مصر ، وها هم أولاء يتساقطون من شدة البرد فى روسيا ... فقد كان يريد أن يحكم الدنيا وحده ولم يعد من حملته سوى عشرة فى روسيا ... فقد كان يريد أن يحكم الدنيا وحده ولم يعد من حملته سوى عشرة فى المائة . . يتهددهم الصقيع والقوقاز !

وعادت فلول الجيش إلى الحدود الفرنسية فى حالة يرثى لها ، حتى أن المارشال ناى « أشجع الشجعان » دخلها ممزق الثياب كريه المنظر . فلما سأله الناس : من أنت ؟ قال :

أنا الجيش الكبير !

وانقلبت أوربا كلها ضد نابليون المهزوم .

أما هو ... فكان يعد حملة جديدة !

وقال : فى هذه المرة سأفعل كما كان يفعل : الجنرال بونابرت .

وأدار معركة « لوتزن » بكفاءة باهرة ثم أحرز نصراً مؤزراً فى بوتزن . . كانت همته فى صعود ، ونجمه فى أفول ... فقد هزمته أوربا فى « معركة الأمم » وكان هو يقول : إن صقيع روسيا أفقدنى كل شىء ... إلا الشرف.

وكانت كرة الحكم فى فرنسا قد وصلت إلى قدم تاليران الذى راح يلعب بمهارة ويسعى لإصابة الهدف : إنقاذ فرنسا .

ورفض الحلفاء مفاوضة نابليون فأرسل تاليران مسيو كولينكور لإقناع الامبراطور بأمر هام فوجده فى قصر فونتنبلو : يصلى !

وابتدره الامبراطور متسائلا : ماذا تريد منى ؟

فأجاب : تضحيات عظمى . . . تتنازل جلالتك عن العرش لابنك .

القائد الهمجي . . !

« لو محيت جميع أخبار الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان لبقى لرجال الحرب معين لا ينضب من المعلومات والدروس الحربية »

جنرال مكارثر

ولد وفى يده كتلة من الدم، وبدأ حياته الدموية بقتل أخيه لأنه اغتصب منه سمكة ، وشنق ابن عمه بخيط رفيع من الحرير ، وكان يلقى بخصومه فى الزيت المغلى ، وأغار على القبائل فقتل وسبي وغنم، وغزا المدائن فخرقها ولم يترك زرعاً ولا ضرعاً ، وقاد جيوشاً كالوحوش الضارية لم يعهد لها مثيل فى القوة والبأس . وجعل لنفسه أمبراطورية عظمى وإسماً خالداً بين عباقرة التاريخ . . حتى قال نابليون بونابرت : « لم يوفقنى الله مثلماً وفق جنكيز خان » .

ولعل الصورة الشائعة عن جنكيز خان ، هى صورة الجندى الهمجي الذى قاد جنوداً همجاً متعطشين إلى الدماء يقتلون ويسلبون ويدمرون وفق شعارهم : إضرب وخرّب . . .

ولكن دراسة جنكيز خان وبيئته وعصره تكشف عن عبقرية عالمية لمعت في ظروف لا مجال فيها للكفايات العادية وبلغت الغاية فى السيطرة على أقوام همج وتحويلهم إلى جيش منظم يحسن الاستعداد للحرب والتقدم فيها على مبادىء وخطط تحدث بأن جنكيز خان كان رجلا فذاً وقائداً موهوباً وحاكما بارعاً قديراً وفاتحاً ورجل دولة وقد أثر عنه قوله :

إن من يقدر على حفظ نظام بيتـــه يستطيع إقامة النظام فى أمبراطورية .. ومن يستطيع قيادة عشرة رجال بطريقة صحيحـــة يمكن أن يقود عشرة آلاف رجل .

نبت جنكيز خان فى أرض التتار بإقليم دولون يلدق بشرق آسيا وكان مولده سنة ١١٦٢ وأبوه من زعماء القبائل المسموعى الكلمة المطبوعين على الحرب والسلب والنهب فنشأ فى معسكر الرجال المحاربين يرى الصفوف تلو الصفوف تندفع بإشارة من قائدها وتسابق الريح فى غدواتها وتغير على المدينة فتقتل رجالها وتسبي نساءها وتزدرد خيراتها .. ثم تجعل عاليها سافلها .

ورأى القبائل تتنازع وتتحارب ، والعاقبة للأقوياء ! والرجال يلفّون ويدورون كى يظفر الواحد بخصمه أو يخدع الحليف حليفه فيغدر به ويجهز عليه .

وكان من الأمور المألوفة أن يحدث القتل فى وضح النهار أو تتم الغزوة فجأة بلا سابق إنذار فغاية الفرد أو القبيلة هو قهر الأعادى ... ولا بأس أن يكون قهر الحلفاء أو تدمير أقرب الأقرباء !؟

وقال جنكيز خان :

لقد استقر رأيي على أن أدعو أولئك الذين آلوا على أنفسهم مشاركتي فى السراء والضراء ومقاسمتي حلو الحياة ومرها ، أولئك الذين لهم نقاء البلور . . . عزمت على أن أدعوهم شعب المغول ، وإن غاية ما أتمناه هو رفع شعبنا إلى مرتبة السيادة فى العالم ؟!

وبدأ جنكيز ينفذ خطته : أنشأ جيشاً منظما وبهذا الجيش سيطر على قومه ثم على جيرانه . . وراح يغزو العالم !

جعل الجيش جماعات وسرايا وكتائب وفرقا أى عشرات ومئات وألوف وعشرات الألوف بما يساعد على تعبئة الجيش فى الحال ويجعل كل فرد يعرف مكانه فى القيادة أو فى الصفوف .

وكان الجيش يتدرب فى فترات الفراغ من الحروب ، فيذهب إلى مناورات بعيدة على أرض مختلفة وفى أجواء متغايرة . .

وكان يرى أن التدريب الجيد هو أساس النصر .

وعرفت عنه شدة عنايته بالضبط والربط ، لم يكن يقبل هوادة فى معاملة رجاله ، يكافىء المحسن ويدمر المسىء وكانت هذه القسوة البالغة مصدر قوته كما كانت مرجع شدته ، تزعزعت لها قلوب الأعداء قبل اللقاء ، وتهاوت أمامه الحصون والقلاع من غير دفاع .

ووضع جنكيز خان « أوامر مستديمة » لقواته فى أحكام بجمعة اسمها «الياسة» بيَّن فيها نظام التعبئة وتنظيم الجيش ومسائل الإعاشة والتموين والجرائم والعقوبات والعمل فى أراضى العدو ، والتصرف فى الغنائم .

وهكذا حقق من تلقاء نفسه ، وبمحض تفكيره الخاص ، جماع النظم العسكرية الحديثة قبل سبعمائه عام .

وكان يرى أن القائد الناجح هو « الذى يقطع المسافات الطوال بلا تعب ولا جوع ولا عطش ويضع المشاكل الإدارية والطاقة البشرية ومتاعب جنوده نصب عينيه » .

وهو أول من استخدم الجاسوسية والطابور الخامس والدعاية التى توهن قوى العدو حتى قيل أن جنكيز خان إذا أصدر أمراً على حدود الصين فإن أسعار السمك تنخفض فى انجلترا ويباع الخمسون منها بشلن واحد !



جنكيز خان

نهاية المغلوب

أفرجت الدول الكبرى عن المعتقلين من القـــادة الألمان الذين نفـذت فيهم أحكام محكمة نورمبرج بتهمة تعكير السلم والإخلال بالمعاهـدات ، وذلك فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وكانت هذه هى المرة الأولى التى تظفر فيها الدول برؤوس خصومها فى الحرب فقضى على بعضهم بالإعدام وعلى الباقين بالسجن فترات متفاوتة .

وقديماً كان المقاتل البدوى يصفح عن خصمه بعد انتهاء القتال ، على نحو ما يجرى اليوم فى مباريات الرياضة البدنية من مصافحة بين الغالب والمغلوب .

وقد كان الصفح من شيم كبار العسكريين حتى أن تيمورلنك — رغم قسوته ووحشيتـه — لم ينكل بخصمه بايزيد القائد التركى ، بل أكرم وفادته وأبقاه لديه معززاً مكرماً حتى إذا قضى نحبه ، لم يضن عليه بمكان كريم فى بطن الثرى فأرسله إلى بلاده ، ليدفن إلى جانب أبائه وأجداده .

وحينما انتصر الأسكندر الأكبر على الملك بيدوس فى غزوته للهنـد ، لم يشأ أن يقتله أو يسىء معاملته بل تلطف معه وسأله عما يريد فقال : « أريد أن تعاملنى معاملة الملوك » وأجابه الأسكندر إلى ما أراد . .

وجاء نابليون فاشعل نيران الحروب فى أوربا ثم غلب على أمره ووقع فى قبضة أعدائه وبعـــد بحث طويل فيما يصح أن يعاقب به تقرر تعيينه ملكا على جزيرة ألبا! فلما فر من مملكته الصغيرة وهزم فى معركته الأخيرة استقر رأى خصومه على الاستراحة منه إلى الأبد ... وذلك بالنفى والإبعاد ، وكان أن أمضى النسر الفرنسى بقية حياته أسيراً فى جزيرة القديسة هيلانة ...

وفى الحرب العالمية الأولى هزمت ألمانيا فالتجأ القيصر إلى هولندا فآوته وظل أمبراطوراً فى المنفى!

أما فى الحرب العالمية الأخيرة فقد فطن الحلفاء إلى هذا المخرج وأصدروا قراراً بمنع حماية اللاجئين وللمرة الأولى لم يعد للمغلوب باب مفتوح ينجو به من نهايته الأسيفة وإن كان الإعدام فى عرف العسكريين أفضل نهاية وأشرف ختاما من ذل الانكسار ومرارة الأسر .

وقد جاء « شوقى » بهذا المعنى على لسان القائد الرومانى أنطونيو بعد هزيمته المشهورة فى مصر إذ قال مخاطباً معاونه الوفى « أوروس » :

فمالت بنا الدنيا فصرنا بموضع	شديد على الأبطال بالذل مشعر
فكيف مقامى يا أروس على الأذى	وصبرى على العيش الذليل المكدر
أروس ألم تفهم؟ هو الذل فاشفنى	بضربة سيف أو بطعنة خنجر

فإن البارود لم يكن قد اخترع بعد . . وإلا لطلب أنطونيو أن يقضى عليه برصاصة واحدة كما طلب فيما بعد المارشال كيتل والجنرال يودل وغيرهما الإعدام

بالرصاص تمشياً مع التقاليد العسكرية وليس بحبل المشنقة أو السجن كما يحدث للمجرمين ...

ومما يذكر لهذه المناسبة أن المارشال ناى من قواد نابليون حوكم عند عودة آل بربون إلى عرش فرنسا فقضى عليه بالاعدام ولما وقف أمام جنوده ليطلقوا عليه النار رفض أن يضع العصبة على عينيه وأراد ميتة عاجلة شريفة فصاح فيهم : لا تضربوا فى الوجه الذى لم تروه إلا منتصراً . . سددوا إلى القلب .

وكانت هذه آخر كلمات « أشجع الشجعان »



المارشال روميل

أشجع الشجعان !

لا غرو أن تكون الشجاعة فى مقدمة صفات العسكريين فهى المعين الذى يزود الجندى بروح الكفاح والقوة الكامنة التى تدفع به لخوض غمار الأهوال وانتزاع النصر من مواطن الشدة والبأس .

وقد حفل تاريخ الحروب بوقائع وأحداث كان للشجاعة فيها النصيب الأوفى قبل أى سلاح آخر من أسلحة القتال ، وكثيراً ما كان لإقدام جماعة من الجند وربما لإقدام جندى واحد ما عجل بمصير المعركة أو نقل النصر من عسكر إلى عسكر .

وإن فى تاريخ كل أمة صفحات مجد وفخار ، سطرتها سيوف الرجال الشجعان الذين خاضوا غمار الحروب والأهوال بقلوب لا يعرف الفزع أو الجزع إليها سبيلا وأقدموا على معمعان الموت لا يحسبون له حسابا فمنهم من وصل إلى غايته ومنهم من قضى فى سبيلها وهم فى الحالين يتركون لخلفائهم قبساً من النور يوقد العزم ويلهب الشعور .

ومن صور الشجاعة التى لا تغيب ذكراها صورة رجال أسبرطة الثلاثمائة الذين قضوا فى معركة وحيدة بعد أن رفضوا التراجع عن مراكزهم فمرّ أعداؤهم على جثثهم فصارت شجاعة أهل أسبرطة مثلا يروى .

كما أن من أعمال الأفراد ما خلد أثره وذاع ذكره وصار تراثاً يتداوله الخلف

عن السلف فما تقلب صفحات الماضى حتى تجد أمثلة ممتازة لما قام به الرجال البسلاء من أعمال البطولة العظيمة والشجاعة المتناهية .

وقد قال نابليون : « إن من أعمال الشجاعة ما يفوق الخيال » .

وقد روى عن الأسكندر المقدونى أنه حين أعجـــزته الوسائل عن غزو أحد الحصون صعد إلى حائط الحصن ثم ألقى بنفسه إلى الداخل فتبعه جنوده كالشياطين متأثرين بشجاعته مقدمين على ما أقدم عليه من مواجهة الخطر الداهم فلما وصلوا إلى مكانه ألفوه مضرجاً بدمائه وقد أصابته سهام ورماح .

وكان الجنرال ديزيه يقود فيلقاً فى معركة مارنجو الشهيرة بين فرنسا والنمسا وقد خسر الفرنسيون الجولة الأولى . فما كان من ديزيه إلا أن تقدم من قائده بونابرت قائلا : « سيدى الجنرال ... بعد ثلاث ساعات سوف يكون العدو فى قبضتنا » ثم لوى عنان جواده واندفع بفيلقه ليخترق الصفوف ويقتحم النيران . ومضى فى مقدمة رجاله والموت يترصده من كل جانب حتى نجح هجومه الجارف بفضل شجاعته وقد مزقت جسده رصاصات العـــدو فلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يردد كلمته المشهورة :

« إننى أموت سعيداً لأننى أموت فى سبيل الوطن » .

"Je meurs content, puisque je meurs pour la patrie".

وقد حدث فى إحدى المعارك بين الجيشين الفرنسى والألمانى عام ١٧٦٠ أن تسلل إلى مواقع الجيش الفرنسى جماعة من الألمان فى ثياب الفرنسيين فكانوا يقتلون ويدمرون دون أن يفطن إليهم أحد حتى وقع فى أسرهم الشيفاليه داسا

يحذروه من الصياح حتى لا ينكشف أمرهم وإلا دفع حياته ثمناً لصيحته فما كان من الجندى الشجاع إلا أن صاح بأعلى صوته « إنهم الألمان ... احذروا » ... وسقط يتلوى ودفع حياته ثمناً لشجاعته . جاد بها فداء عشرات من أبناء جلدته .

وكان هانيبال بطل قرطاجنة جنديا باسلا فلاتجد قائمة لعظماء العسكريين إلا وهو فى مقدمتها وما زالت معركته الشهيرة « كانا » مثلا ينسج على منواله واضعو الخطط الحديثة وقد كان هذا الجنـــدى العظيم لا يعرف التراجع أو التسليم مهما كانت الظروف وكان شعاره « إننى لا أنظر إلى الخلف مهما يحدث »

وقد هزم هانيبال فى موقعة زاما فسأله القائد المنتصر « سيبيو » عن رأيه فى أعظم جندى فى التاريخ فأجاب هانيبال : الأسكندر الأكبر . فسأله : ومن الثانى ؟ فقال بكل شجاعة : أنا ... !

وذلك على الرغم من أنه فى حضرة القائد الذى هزمه منذ ساعات .

أما جان دارك الفتاة القروية الساذجة فقد رزقت قلباً نادراً ممتلئاً بالشجاعة والإيمان فتقدمت فى مواطن البأس والشـدة دون أن يروعها المصير الذى كانت مندفعة إليه ولم تكن قد امتطت من قبل جواداً أو امتشقت سيفاً ولـكنها تقدمت بإيمانها وشجاعتها لتقود جيش فرنسا فى أكبر معركة ضد الاحتلال البريطانى .

ولما وقعت جان فى أيدى الانجليز سمعت الحكم بحرقها دون أن تحرك ساكنا وتلقت نهايتها الفظيعة وهى رابطة الجأش وأخذت تهبط درك الجحيم حتى غابت فى غياهب النيران ... وانفجر الحضور باكين منتحبين لهذا المصير المحزن والمأساة الرهيبه ، وصاح صائح ومنهم : « ياله من إجرام ، لقد أحرقنا قديسة » .

وإذا ما ذكرت الشجاعة فلا بد أن يذكر كامبرون قائد الحرس الأمبراطوري في عهد نابليون ، ذلك الجندي الفذ الذي وقف في ميدان واترلو والنصر يميل شيئاً فشيئاً إلى جانب بريطانيا حتى اختفت البارقة الأخيرة من الأمل ... فتقدم كامبرون من نابليون ونظر إليه نظرة طويلة فيها كل معاني الولاء والشجاعة فلم يتكلم الأمبراطور ؛ ولكنه أشار بطرف سبابته إلى الإنجليز ... فاندفع كامبرون على رأس الحرس نحو وادي الموت وهو يتمتم :

« إن الحـــرس يموت ولا يستسلم » .

Le garde meurt et ne se rend pas.

وقد اشتهر دوق ولنجتون بشجاعة نادرة حتى لقب بالدوق الحديدي . وكان هذا الجندي الكبير — الذي لم يخسر معركة — يقف بين جنوده في خط النار ، وكانت بسالته مضرب الأمثال فلما كان في معركة وترلو تجمع حوله الضباط محافظة على حياته وهو مستهدف للخطر لا يعتصم بمخبأ ولا يتراجع عن معترك النيران ورجاه أحدهم أن ينقذ نفسه إنقاذاً للنصر البريطاني فقال ولنجتون :

« لا ضرورة لحياتي بعد اليوم فقد كسبت المعركة » .

وكان المارشال لدوندروف قائداً باسلا أسد القلب وكان اسمه وحده بشيراً بالنصر وكان الجنود الألمان يندفعون إلى المراكز الخطيرة اقتداء بما يرونه من شجاعة قائدهم وعـــدم مبالاته بالخطر فكان انتصار الألمان على الروس في وقعة تاننبرج هو انتصار للشجاعة والإقدام . وقد سئل لدوندروف عن رأيه في الموقف الحربي بعد أن وضحت هزيمة ألمانيا فقال :

« القتال إلى النهاية ... إلى الموت »

وكانت الشجاعة من صفات العرب الفطرية ؛ فحفلت سيرهم بأنباء البطولة وفعال البسالة فإذا ما راجع شبابنا صفحات ذلك الماضى العظيم وجـــدوا صوراً رائعة وأمثلة خالدة يندر نظيرها فى أيامنا هذه.

وفى مقدمة الجديرين بالذكر على بن أبى طالب وقد كان شجاعاً لا ترهبه الأحداث مقداماً لا يتأخر عن الصف الأول وقد نوشد فى أحد المعارك أن يحتمى من الأعداء وقد تربصوا به الدوائر فقال على:

« أبالموت تخوفونى ! فوالله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت على »

وقيل لعلى إن درعك لا ظهر لها فقال: « إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا أبقى ... »

كذلك كان خالد بن الوليد يتسلح أول ما يتسلح بشجاعته فلا يقنع بإدارة دفة القتال أو توجيه الرجال وإنما كان محارباً فى مقدمة الصفوف فلما طلبه قائد الروم لمناجزته — حقناً لدماء الآخرين — وافق على الفور واشتبك معه فى قتال رهيب حتى قتله ... وقد عرف عن خالد أنه مات حتف أنفه ولم يكن فى بدنه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة.

هكذا كان العرب ...

وهكذا نريد أن يكون الخلف كالسلف.

عباقرة الحرب .. شبان

خالد بن الوليد ، الزبير بن العوام ، عمرو بن العاص ، سعد بن أبى وقاص ، طلحة ، أبو عبيدة ... وعبقريات أخرى حفل بها تاريخ الإسلام، وكلها لشبان غرّ ميامين أسلموا لله أمورهم وشرعوا للحق سيوفهم ، فهزموا المشركين وقضوا على المرتدين ، وأدالوا دولة الأكاسرة ، وكسروا شوكة القياصرة ، وحملوا راية الإسلام عالية خفاقة أينما ولوا وجوههم وحيثما أعملوا سيوفهم .

وقد بارك النبي صلوات الله عليه هؤلاء القادة الشبان بتقريبهم وتقديمهم فانطلقوا إلى ساحات القتال حيث لمعت عبقرياتهم ، وأبدوا من ضروب البسالة والبراعة وفنون القيادة والإدارة ما يضعهم فى مصاف أعظم قواد العالم فى جميع الأزمان .

وإذا اطلعت على قائمة (أعظم قواد التاريخ) — فى رأى المارشال ويفل — فإنك تجد أسماء لامعة يزهو بها شباب العسكريين فى كل حين : الأسكندر الأكبر هانيبال . بلساريوس . فردريك الأكبر . نابليون . جاكسون . جوستاف أدولف . تورين ... وغيرهم من النجوم الساطعة فى سماء العسكرية .

بلغ هؤلاء المشاهير ذروة المجد الحربى وهم فى أوج الشباب وكتبت لهم أعظم الفتوح وأبهر الانتصارات وهم ضحوة العمر ... وهكذا تتم أعظم الأعمال تحريكا للنفس على أيدى شباب بواسل يجمعون بين القوة واليقظة والفن والرجاحة .

وما أصدق قول بول كلوديل (يقولون أن الشباب هو عهد الملذات ... لقد تجنوا ، إنه زمن البطولة) .

وقد روى عن شاعر رومانى قديم أنه قال : (ما أتعس الرجل المسن فى الحب ... وفى الحرب) وقد عقب المارشال ويفل على هذه العبارة بقوله : يكاد يشق علينا أن نحدد بالتمام تلك السن التى تنتهى عندها مقدرة القائد على قهر أعدائه أو السن التى تنتهى عندها حظوة دون جوان عند النساء ... ومهما يكن من أمر فإن القائد الشاب المتميز بالحصافة والجسارة أفضل دائماً من القائد الشيخ مهما كانت تجاربه وحنكته .

وقد عرف عن الأغريق والرومان الأقدمين أنهم كانوا يختارون لقيادة الجيش شاباً جريئاً مقداماً ثم يحيطونه بهيئة أركان حرب من المحاربين القدماء ذوى الخبرة والتجربة الحربية فيساعدونه على وضع الخطط التى يقوم بتنفيذها .. ولا غرو فإن فى مقدمة ما يجب أن يتصف به القائد اليقظة والصلابة والمعرفة .. وهى صفات لا بد لتوافرها من « أكسير الشباب » فى العقل والجسم والروح .

وفى العصر الحديث بقيت لهذه الصفات مكانتها ولم تغير المعدات والمخترعات العصرية من قيمة المعنويات فى الحرب فظلت الأولوية فى القيادة للشباب .... فالشجاعة والصحة والقوة عناصر ضرورية لهذا الرجل الذى يتعامل بأرواح ألوف من الرجال ، كى يستطيع احتمال الجهد الذى يتطلبه هذا العبء الجسيم وقد عمد المسئولون فى الجيوش الحديثة إلى تخفيض سن التقاعد للقواد . وقرر مجلس الحرب البريطانى فى غضون الحرب الأخيرة استبدال الذين لا يصلحون لمهام الحرب

الحديثة والنهوض بأعبائها ، بضباط أحدث منهم سناً وأسرع خاطر وأقوى عزما .

وإذن فالبطولة العسكرية قديماً أو حديثاً هى من خصائص الشباب . . . وكان الأسكندر المقدونى فى الخامسة والعشرين من عمره عند ما أحرز النصر العظيم فى معركة « أرابيلا » إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ فقوض ملك فارس أقوى أمبراطورية فى العالم ، وغزا مصر وبابل وفتح الهند وأصبح سيد الدنيا وهو فى ريعان الشباب ... وهانيبال ، الرجل الذى جعل لقرطاجنة قدما فى التاريخ والذى غادر بلاده على رأس جيش من المحاربين البسطاء ليواجه أعظم أمبراطورية فى زمانه وكان حينذاك فى الثلاثين من العمر لا يعرف إلا التقدم والبطش بالعدو ودحره لأن « الإله الأعظم نادانى وأمرنى ألا أنظر إلى الخلف مهما يحدث » .

وكان غزوه لإيطاليا عملا عسكريا ممتازاً وقتاله فى « كانا » نموذجاً يدرسه إلى اليوم طلبة الكلية الحربية فى جميع المعاهد العالمية كأثر خالد فى فن الخطط العسكرية فلما اجتاز هانيبال مرحلة الشباب وبعد ستة عشر عاماً من انتصاراته الكبرى ، لم تعد لديه القوة اللازمة لقهر شهاب ساطع الشباب ، وهو « سيبيو » الذى فاز على هانيبال « الشيخ » فى معركة « زاما » المشهورة.

أما « بلساريوس » أحد قواد جوستنيان فقد كان قائداً تشرئب لمرآه الأعناق وهو دون الثلاثين من العمر ... وقد امتاز بجمعه بين ملكتى الإبتكار والتنظيم أكثر من أى قائد آخر . وكان فردريك الأكبر على رأس بروسيا وجيشها وهو فى التاسعة والعشرين ، ولم تمض أربعة أعوام حتى صار أعظم جندى فى أوروبا .

وكان جاكسون قائداً ممتازاً وهو فى السابعة والعشرين ثم غادر الجيش وجال بفكره فى أفاق أخرى ثم عاد إليه بعد عشر سنوات موفور الثقافة وصار من أعظم قواد أمريكا شهرة ومكانة .

وانتصر جوستاف أدولف فى معركة « برتنفيلد » المشهورة وهو فى السابعة والثلاثين وكان تورين مارشال فرنسا فى الثانية والثلاثين كما كان كونديه قائداً عاماً فى الثانية والعشرين .

وكان سابوتى وشارل الثانى عشر والبرنس أوجين جنرالات قبل سن الثلاثين كما كان سيدليتز ولورنس ومونسكيونى قادة قبل سن الأربعين .

وقد حارب نابليــــون أوروبا وهو فى شرخ الشباب وراح يحرك الملوك والشعوب فى ساحة الحرب كلاعب الشطرنج فأنشأ الأمم ونظم الأمصار ووضع تصميم أوروبا الحديثة . . . غير أن أروع الصور فى حياة نابليون ، هى صورة ذلك الضابط الناشيء الذى خرج من بين مئات ضباط المدفعية ليخمد الثورة حتى إذا ما ارتسمت صورته فى مخيلة الجماهير ودوى إسمه فى آفاق فرنسا امتشق حسامه ـ وهو بعد فى السادسة والعشرين من عمره ـ واعتلى صهوة جواده الأبيض وذهب يناجز « بوليو » الشيخ المحنك ويهزمه شر هزيمة . . وهو الذى كان قائداً قبل أن يولد نابليون !

وما دمنا قد ذكرنا نابليون فلنذكر معه شيطانه دوق « ولنجتون » القائد الذى تفخر به بريطانيا إذ جنبها المصير المظلم الذى كان يدفعها إليه نابليون فعبر البحر إلى القارة ليوقف الطوفان ورفع يده فى وجه نابليون . . وقال « كفى » !

وذلك فى معركة ووترلو الحاسمة وقد كان ولنجتون فى ذلك الحين أصغر من نابليون بعامين كاملين .

وفى الحرب العظمى استطاع المارشال بيتان أن ينقذ فرنسا من الهاوية وأن يحرز فوزاً مبيناً فى معركة « فردان » ... ولا غرو فقد كان شاباً مقداماً عنيفاً استطاع أن يقول فى ثقة أن الألمان « لن يمروا » . فحفظت فرنسا هذه الكلمة الخالدة وانتشت بها روحها وكسب بيتان معركة كانت فى حكم الخاسرة .

ولكن بطل فردان فى سنة ١٩١٨ لم يستطع أن ينقذ فرنسا فى سنة ١٩٤٠ لأنه كان قد مضى على زمن البطولة نحو ربع قرن فلم تطاوعه روحه التى دب إليها الوهن مع الشيخوخة ولم تجد عليه قريحته المكدودة بغير كلمات ضعيفة متخاذلة « لقد حلت المحنة وطلبت إلى العدو إنهاء القتال » .

وقد تولى الجنرال ديمترى ليلوشنكو قيادة ست عشرة فرقة فى جبهة « رزيف » — أخطر جبهات روسيا فى الحرب المنقضية — وهو فى السابعة والثلاثين من عمره . . . فلما سأله مستر « ويندل ويلكى » عن القطاع الذى يدافع فيه ، نظر إليه بغيظ وقال « سيدى : إننى لا أدافع . . إننى أهاجم » ! وهكذا تكون روح القائد الذى يسيطر على حياة مائة ألف جندى ويرى مصير أمته فى كل ساعة وهو يتأرجح بين النصر والهزيمة ، أو قل بين الحياة والموت !

إن المجد العسكرى للشباب ، ولابد أن يأخذ القوس باريها ، فإذا وجب تحديد سن القيادة فليرجع أصحاب الشأن إلى قائمة كبار العسكريين ، يجدون أن جميع

عباقرة الحرب كانوا شبابا .. أو فليتدبروا رأى نابليون — أعظم عبقرية عسكرية — فهو يرى ألا تزيد سن قواد الكتائب واللواءات عن الخامسة والثلاثين وقواد الجيوش عن الخامسة والأربعين .. ولعل هذا يكشف عن سر انهزام نابليون فى « ووترلو » فقد كان فى السادسة والأربعين ! وختم حياته بهذه الهزيمة الماحقة وقال فيها كلمته المشهورة « خسرنا كل شىء إلا الشرف » .



نابليون .. أشهر عبقرية عسكرية

الجندى الشهيد

تلقى الجندى أمراً بالرحيل فودَّع زوجه وولده وانطلق إلى مقر وحدته ومنها إلى الميدان، وهو يفكر فى إحدى الحسنيين :

النصر ... أو الشهادة .

... وظفر بالشهادة !

وقالت الدولة : إنك وقد قدر لك شرف الموت فى سبيلى فإنى أشيعك معززاً مكرماً وأتولى أمر أسرتك وأضمن لأولادك وذويك حياة طيبة حتى لا تذهب التضحية من أجلى هباء منثوراً .

لقد عرف العسكريون بأنهم أقل الناس تكالباً على متع الحيـــاة وبهرجها . فالتقشف طابعهم والبساطة ديدنهم . . بل أن حياتهم كلها سلسلة من التضحيات ، فهم راضون مطمئنون طالما وفرت لهم الدولة أسباب الحياة المألوفة وحققت لهم ولذويهم سبل العيش العادية وعرفت أن لهم على الوطن حق الرعاية والإكرام ، تراهم فى طريقهم جادين عاملين لا يطلبون لأنفسهم شيئاً ولا تحوّلهم خـــديعة ولا يجذبهم إغراء . . يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع ، وهم فى جدهم وقناعتهم يضربون خير الأمثال ومن ثم كان على أولى الشأن أن يقابلوا ذلك السلوك الكريم بالتقدير الحق والعناية الواجبة .. وإذا كانت التضحية فضيلة

لا فضل فقد حق علينا معشر العسكريين أن نمسك عن الحــديث عنها ونتأبى المباهاة بها فكلنا جند الوطن نفديه بالمهج والأرواح وندفع حياتنا عن طيب خاطر إذا كان فى ذلك سلامة الوطن وكرامة بنيه . ولقد أدى الجندى الشهيد واجبه خير أداء فكان من الموعودين بالجنة « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجنة تحت ظلال السيوف »

ومثل هذا الجندى الذى يندفع فى أداء واجبه غير هياب ولا وجل هو الجندى الحقيق الذى لا ترهبه أشد المواقف هولا ولا تحوله أعظم المغريات عن سبيله التقليدى فى خدمة الوطن فهو بثباته وإقدامه وشجاعته قد ضرب المثل للروح العسكرية والوعى القومى فلم يتراجع عند ما اشتدت المحنة ولم يتأخر حين دعاه العمل واستمر فى طريقه وكفاحه ، والموت يترصده من كل جانب والضربات تصوب إليه فى كل خطوة ، وكأنما كان يردد قول الشاعر العربى القديم :

ولست أبالى حين أقتــل مسلماً

على أى جنب كان فى الله مصرعى

إن هذا الجندى الشهيد قد أعاد إلى أذهاننا صور البطولة العسكرية وبعث من جديد روح التضحية ونال من شرف الجهاد ما كان يتمناه كبار العسكريين وقد كان خالد بن الوليد يرثى حظه ويندب طالعه لأن الموت قد أقبل عليه فى فراش المرض وليس فى ساحة القتال وهو الذى لم يكن فى بدنه موضع شبر إلا

وفيه ضربة أو طعنة لحرم شرف الاستشهاد الذى كان جديراً به ومات حتف أنفه .

وها هي ذى المعركة محتدمة فى فلسطين لا تريد إسرائيل أن تضع لها حداً وجنودنا والمجاهدون يدافعون عن الوطن العربى لا يقعدهم عن تحقيق أمانيهم بأس عاد . . شرفهم الأعلى أن يكونوا كما كان آباؤهم أبطالا لا تعز عليهم تضحية :

يستعذبون منـــاياهم كأنهمو
لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

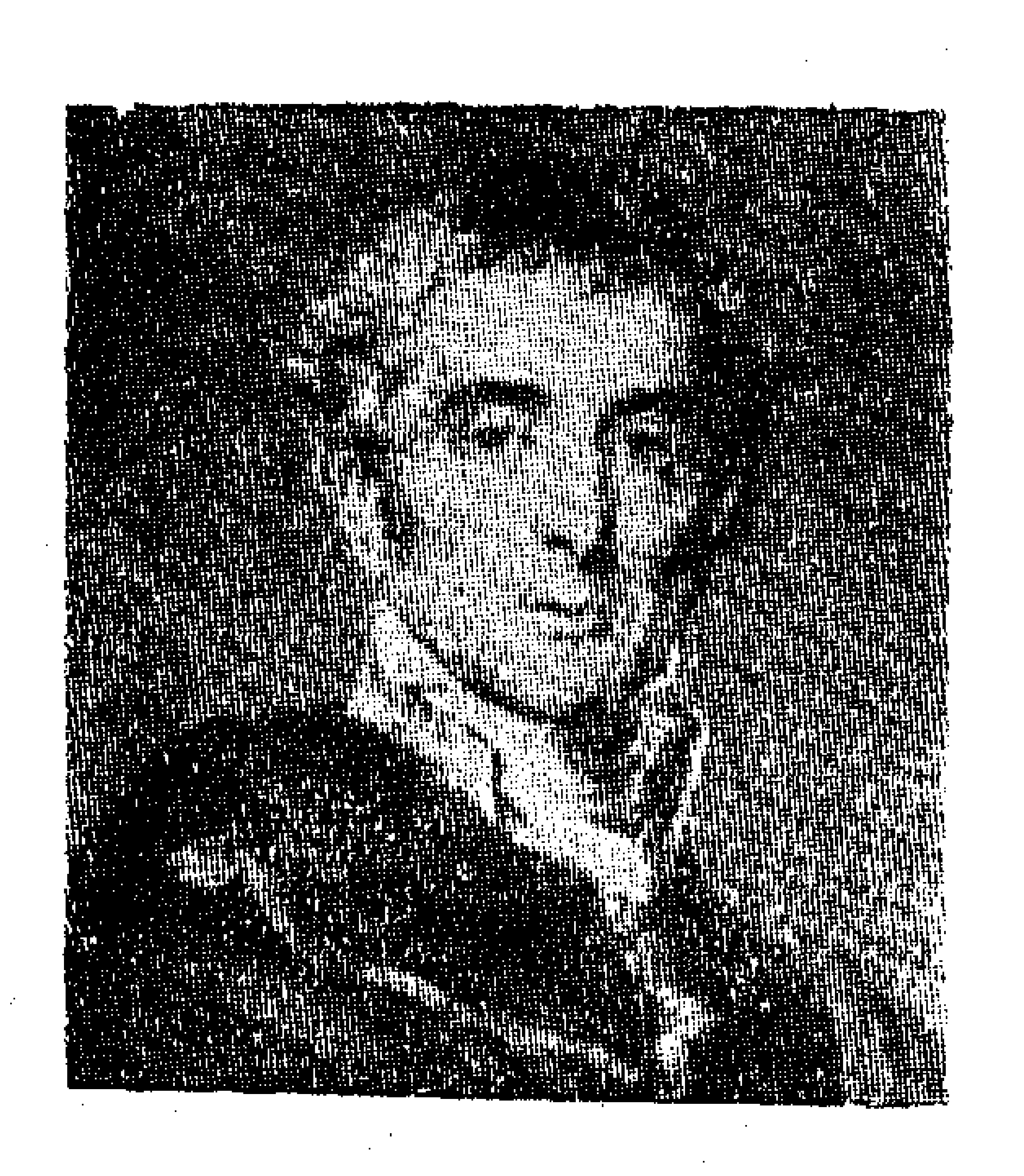
وقد كان العرب القدامى يقدمون على القتال إقدام الأسود الكاسرة وينقضون على عـدوهم انقضاض النسور الظافرة لا يبـالون أسقطوا على الموت أم سقط الموت عليهم .

فإذا كانت غلبـــة فقد انتصر الحق وإذا كانت ميتة فإن الجنة تحت ظلال السيوف .

ومن صور البطولة الخالدة ما كان من جعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء فى قتال الروم فقد أثخنوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت يمينه فأمسك اللواء بشماله فأصابتها ضربة فقطعتها فما كان منه إلا أن أمسك اللواء بعضديه ولبث يناضل عنه إلى أن مات فأخذه الشهيد عبد الله بن رواحه وظل يصول بين الصفوف حتى قتل وهو يردد :

يا نفسى ألا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت   أن تفعلى فعلهما هـديت

وقد كانت التضحية فى سبيـــل الوطن وما زالت أشرف واجب بل أن التضحية الحقيقية هى تضحيـة الجنود المغمورين والأفراد المجهولين وليس من ريب فى أن بطل الأبطال وسيد المضحين هو الجندى المجهول .. ذلك الذى دفع حياته ثمناً لشجاعته ، ولم يفسد الإعلان جلال بطولته .. فلم ينل على إقدامه أجراً ولم يقبض ثمن تضحيته فخراً .



ولنجتـــون
كسب معركة وترلو بالروح الرياضية

أعمدة القيادة السبعة

الشعب هو الشعب ، والناس هم الناس ، ولكن بغير قيادة لا يكون عمل عسكرى ولا تكون حياة وطنية ولا حياة اجتماعية .

ولا يستطيع الناس أن يساهموا فى عمل مشترك كالحرب ، وأن يحصلوا على ثمرات النصر إلا إذا قام واحد منهم بتوجيه نشاطهم وإدارة دفة أعمالهم باستمرار نحو غرض واحد محدد .

والقيادة — كما اصطلح الإخصائيون على تعريفها — هى أن يسير القائد بمجموعة من الجند فى نظام معين نحو هدف معين .

أى أن مفردات القيادة هى :

القائد — الجنود — النظام — الخطة — الهدف .

فنقص أحدى هذه الدعامات يجعل بقيتها غير ذات موضوع .

وقد أجمع الثقاة بفن الحرب على أنه ينبغى للقائد أن تجتمع له عدة صفات ، هى أعمدة القيادة السبعة :

الطاعة — الشجاعة — الإيمان — الكتمان — الشرف — الثقافة — الإنسانية .

■ وتعتبر الطاعة أوجب الواجبات على الجنـــدى ، وبدونها لا تنعقد سلسلة القيادة ، ولا يكون ضبط وربط .. فهى خميرة الجنـــدية التى يجب أن تكون حية فى أعماق نفوس القادة ... إن تعلم الطاعة واعتيادها سابق لتعلم القيادة وفنونها .

■ والشجاعة صفة بديهية فى الجنـــدية ، وهى فضيلة لا يصاحبها رياء ولا خبث فهى المناعة ضد كل ضعف ، وهى المركبة المصفحة التى تعبر بصاحبها معترك الضعف والمفاجأة وتقيه من التخاذل والهوان ، وقد كان نابليون قبل أن يعين أحد الضباط يسأل : هل هذا القائد « موفق » ! وقد كان يقصد هل هو شجاع ؟ .. فالقائد الشجاع هو الذى يوفق ، ولا يمكن أن يوفق إلا القائد الشجاع .

■ وإيمان الجندى بنفسه وهدفه وسلاحه ومصيره قوة عظمى خصّ الله بها أنبيائه وسرت فى الرجال العظام ، كل يسير فى طريقه ويعلم أنه يقصد هدفاً لا يحيد عنه ، فإما النصر وإما الشهادة !

■ والكتمان من الفضائل الأساسية فى القائد ، كان رشليو يصفها بأنها روح الأعمال ، وهذا هو سر التحفظ على الأنباء العسكرية ، فإن إذاعة خبر صغير قد يقلب الخطة رأساً على عقب ويقضى على جيش بأسره ، وليس يكسب القائد هيبة شىء كالصمت ، وكان عظماء القادة لا يتكلمون ، ولم يكن هناك من يضارع نابليون فى صمته ، وقد علم قواده أن يحيطوا أنفسهم بمثل صمت الرهبان فلم تكن شفاههم تنفرج إلا عن النطق بالأوامر .

■ والثقافة العامة هى المدرسة الحقيقية للقيادة ، وبدونها تذهب المعلومات العسكرية هباء ، وليس بين القادة العظام من لم يغترف من نتاج الفكر البشرى ويعتمل بالنزعات الإنسانيـــة ويكتسب من دراساته : الذوق ، والشعور بالفن وإكساب الذهن مرونة وسعة أفق ، وحفظه فى حيوية نشيطة خصبة مثمرة .

■ ولابد أن يحتل الشرف العسكرى اعتباراً سامياً فى نفس القائد ، فالخلق مقدم على الذكاء ، وقد كانت قوة الخلق أهم خصائص القادة العظام . . فالجندية تقاليد تقوم على الشجاعة والنخوة والغيرة والشرف وتنافى الكذب والرياء والنفاق ، وقد كان يحرم من شرف الجندية من يثبت عليه التراجع أو النكوص فى كلمة الشرف التى أخذها على نفسه، ولا بد أن يسلك القائد سلوكاً يرفعه فى نظر مواطنيه ويدفعهم إلى احترامه والثقة به .

■ أما الناحية الإنسانيـــة فى القائد فهى جماع الفضائل ؛ من أهملها انتهى بالإخفاق ، والقائد الذى لايهتم بها هو قائد فاشل إذ لا يمكن لرجل أن يقود آخرين دون أن يفهم مشاعرهم وعقلياتهم ، فالصلة بين القائد وجنوده هى مبعث الثقة ، وبدونها لا يصل إلى نتيجة . . وعندما يكون القائد مؤمناً بالإنسانية طبع ذلك فى جنوده فقادهم إلى الأهداف الحقة . . وهنا لا تستطيع قوة أن تخذله .

القتـــال إلى النهـــاية

.. إلى الموت

يتقدم الجندى إلى معمعان الحرب ، وقد وضع سلاحه فى يده ، وحياته فى يد القدر ، وينتهى به المطاف إلى هزيمـــة أو نصر ، وإلى موت أو أسر وهى نهايات تعاقب عليها المحاربون كباراً وصغاراً من قديم الأزل.. اللهم إلا نهـاية أخرى بغيضة تعافها النفوس الكبيرة وتبرأ منهـا العسكرية المستنيرة ألا وهى : الهرب من الحرب .

وقد حمل أصحاب الرأى على هذا الداء ، الفرار ، وعالجه الإخصائيون بنشر مبادىء الجهاد والوطنية وبث روح الإقدام والتضحية ، وأجمعت الأديان على استنكاره ، وجاء فى القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

وقد وقع كثيرون من رجال الجندية فى مآزق شديدة الحرج ، وتأرجحت أمام أعينهم الحياة فى لباس الذل ، أو الموت مع الحرية ، ففضلوا الموت أحراراً على الأسر أو الفرار ، وقال قائلهم : « بيدى لا بيد عمرو » كما فعل أنطنيوس

اليوناني وسامسنوف الروسي وماكنج جونس الإنجليزي وجورنج الألماني.

وفى أدب العرب قصص شائقة وأشعار رائعة فى ذم الخوف والجبن والهرب والفرار، ولعل فيما نورده للمتنبي غنى عن الإطالة:

كذا يترك الأعداء من يكره القنا ويقفل من كانت هزيمته رعبا

أرى كلنا يبغى الحياة بسعيه حريصاً عليها مستهاماً بها حباً

فحب الجبان النفس أورثه التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

وقد حارب طارق بن زياد مشكلة الخوف وحاول رفع معنويات جنوده بوضعهم أمام الأمر الواقع الذى لا مفر منه، فأحرق الجسور خلفه وقال قولته المشهورة «إن البحر وراءكم والعدو أمامكم..»

ومما يروى عن الجنرال ولنجتون القائد البريطاني المشهور فى التاريخ باسم الدوق الحديدى أنه كان يقف فى خط النار بين ضباطه وجنوده والخطر محدق به من كل جانب، فرجاه ضباطه أن يتراجع عن منطقة الخطر فلم يلتفت لنصيحتهم، ولما سأله أحد ضباطه عن الأمر اليومى Ordre de jour قال:

«القتال إلى آخر طلقـــة»

ولما مرت رصاصة بالقرب منه وكادت تودى به احتج عليه ضباطه وحاولوا إبعاده فقال: لا ضرورة لحياتى بعد اليوم.. لقد كسبت المعركة!

واليوم تعنى الجهات المسئولة فى الجيوش الكبرى بعلاج هذه النقيصة الشائنة ويأخذ الخبراء ورجال علم النفس يذهبون فى علاجها مذاهب شتى ولا يوجد معهد عسكرى لا يعنى بدراسة الطبائع البشرية والأخلاق والسيكولوجية ومحاولة تقوية صفات الجندى بأحدث الوسائل العلمية والأدبية، ورفع الروح المعنوية بغرس الفضائل العسكرية والأفكار الوطنية التى ترتفع بالإنسان فى الجندى إلى أعلى مراتب الولاء ونكران الذات والتضحية .

إن الجندية مهنة الرجال الشجعان .

وما استحق شرف الجندية من تهاون فى أداء واجبه أو فكر فى الحياة مع المذلة .

ولله درّ جرير إذ قال :

قل للجبان إذا تأخر سرجه   هل أنت من شرك المنية ناجى

إنما الجندية الحقة هى الحياة فى ظل الواجب والشرف ؛ تلك الحياة التى تمناها الحصين بن همام حين قال :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد   لنفسى حياة غير أن أتقدما

الجيش يقول ..

كانت حملة نابليون على إيطاليا عام ١٧٩٦ تطوى طريقاً محفوفاً بالمكاره: جبال الألب .. قلة المؤن والذخائر .. نقمة الحكام فى باريس .. ولكن عقل القائد كان ينير الطريق ويبعث الهمة فى النفوس ، فاستطاع نابليون أن يمزّق شمل أعدائه فى موقعة مونتنوت ، فنفض أهل سردينيا أيديهم من محالفة النمسويين وتخلوا عن نيس ، سافوى ، ثم اتجه إلى سهل لومبارديا فتراجع بوليو القائد النمسوى المشهور أمام العاصفة ، ودخل نابليون منتوا ثم واصل زحفه إلى فينا ، واضطر النمسويون إلى طلب الهدنة .

وكتب نابليون إلى حكومته فى باريس يقول :

« تلقيت مشروع معاهدتكم مع سردينيا ، لقد وافق عليها الجيش »

ودهش رجال الحكومة من هذا الأسلوب غير المعهود ، إذ لم يسبق لقائد أن واجه حكومته بمثل هذا التصريح الخطير .. وقال خصومه فى باريس — من أجل هذا الخطاب — « يجب أن يقف هذا البطل الصغير أمام جماعة ضرب النار » !

وراح نابليون يعمل بسرعة ، فقد كان يقول : قد أخسر معركة ولكن لن يرانى أحد أخسر بضع دقائق !

وكانت أول معركة كبرى . . لودى .

عملية خداع متقنة وحركة جريئة عصفت بقوات النمسا التى فوجئت بالهجوم . . لقد نال نابليون فيما بعد انتصارات أعظم شأناً ؛ ولكن انتصاره الرائع هذا فى لودى لم يكن له مثيل فى رفع معنويات الجنود ، ومعنويات نابليون نفسه . . فقد رأى بوضوح طريق مجده .

لقد قررت « لودى » مصير القسم الأول من العمليات ، وأوضحت علامات العبقرية النابليونية ، فاختلطت الأحلام بالحقائق والخطط المبهمة بالأعمال الباهرة . .

« إننى تنبهت — بعد معركة لودى — إلى أننى إنسان ملهم ، ويومها كان بداية تحقيق آمالى فى أن أصنع شيئاً خالداً مما كان يبدو لى فى الماضى كأضغاث أحلام » .

نعم . . كان يدور برأس نابليون غزو قارتين أو ثلاث !

ولكن . . كان يدور برأس الكبار فى باريس : وقف نابليون !

وكانت أول خطوة لذلك إرسال جنرال كلرمان . . ليشاطره العمل فى قيادة الحملة ؟ ؟

ورفض نابليون ... وكتب لحكومته أنها تضع العراقيل فى طريقه : وقد يكون الجنرال كلرمان قائداً ألمعياً يستطيع أن يأتى بنتيجة فائقة ، ولكننا لا نتفق .. سنعمل معاً شيئاً رديئاً !

.. لا يمكن أن تكون المسئولية مجزأة ؛ وانني أستعين بشجاعتى لتحرير هذه الكلمات ، التى قد تفسر بأنها من صنع الأطماع والكبرياء .. أننى لا أستطيع أن يعمل إلى جانبي قائد يعتبر نفسه أحسن جنرال فى أوروبا .

.. إن قائداً رديئاً أفضل من قائدين عظيمين ..

لقد رفض نابليون ما أرادته حكومته من تعيين قائد معه ، وأرسل إلى باريس رده الحاسم ... لا .

ولم يضيع وقتاً ، ففى اليوم التالى تحرك إلى ميلان ، وهناك حيته الجماهير الحاشدة فخطب فيهم قائلا :

« ستكونوا أحراراً وفى أمن أكثر من الفرنسيين أنفسهم ، ستكون ميلان عاصمة الجمهورية الجديدة ذات الخمسة ملايين ، وسأختار منكم خمسين رجلا لحكمها باسم فرنسا .. إن أثينا وأسبرطة لم يختفيا إلى الأبد ».

نعم ، منذ عهد بلوتارك وأبطاله لم يأت قائد كنابليون يقول مثل هذه الكلمات ..

وكان نابليون يرى الجمع بين القيادة العسكرية والسياسية والمالية أثناء الحملة « يجب أن توضع الثقة كلها فى قائد واحد لا يتداخل أحد فى عمله ، إن أمامى أن أفعل كل شيء بجيش جديد ؛ لا بد أن أدفع القوات الجرمانية وأزيل الحصون وأحفظ خطوط المواصلات وأستولى على جنوه وفنسيا وتوسكانى وروما ونابلى ، وأثبت قواتى العسكرية هناك وهناك ، وفى كل مكان . . ولهذا فلا بد من توحيد جميع القوى العسكرية والسياسية والمالية فى يدى . . »

« إذا لم يكن الجنرال هو المركز الرئيسى فإن الجيش يتجه إلى الخذلان »

* * *

كانت الحكومة فى باريس تحتفل بالنصر ، وتأتمر بالمنتصر .

وكلما حاول نابليون الحصول على امداد أهملوا طلبه وتداولوا فى طريقة القضاء عليه . . قبل أن يقضى هو عليهم ، فإنه يحرز النصر ويتفق على الهدنة فإذا عاد إلى باريس بطلا تخفق حوله الأعلام والقلوب فإنه سوف يدفعنا بيد واحدة ؛ ويأخذ السلطة باليد الأخرى .

وكتب إليهم نابليون محذراً ومنذراً :

باسم ثمانية آلاف رجل أحذركم وأقول لكم :

إن الوقت الذى كانت فيه حفنة من المحامين يستطيعون السيطرة على مصائر آلاف الجنود وسوقهم إلى المذبحة . . قد انتهى ولن يعود .

القائد المقدس

« إننى أضعه فى القائمة قبل
نابليون بونابرت »
مارشال ويفل

إن مكانة « روبرت لى » لا ترتفع إليها مكانة عظيم آخر من الأمريكيين ؛ فهو شخص مقدس على مر الزمن فى جنوب أمريكا ؛ أى فى موطنه الأصلى. أما فى الشمال فيعدونه أحد الأمريكيين العظام ؛ وفى انجلترا يبهر إسمه الخلاب طلاب التاريخ العسكرى . . والغريب أن الجنرال لى لم يقم بفتوح رائعة ؛ ولم يحرز انتصارات باهرة ؛ وإنما كان بطل قضية محكوم عليها بالخسران.

وتنظر قائمة أعظم قواد العالم ، كما وضعها ويفل ، فتجد بين الأسماء الأولى « روبرت لى » — قبل اسم نابليون — كما تجده فى قائمة ليدل هارت وغيره من المؤرخين والقواد الذين تولوا بحث أسرار العظمة العسكرية والقيادة الفذة.

ولعل أعظم ظاهرة فى بطولة « لى » أن ولاء جنوده وتعلقهم به لم يكن له مثيل ؛ وعلى الرغم مما ذكره المؤرخون عن ولاء الفرنسيين لقائدهم العبقرى بونابرت فلن ننسى أنهم حاربوه حين مالت شمسه إلى المغيب وأطلقوا نيرانهم

على صفيه المارشال ناى « أشجع الشجعان » . . ، أما « روبرت لى » فكان معبود جنوده الذين يفتدونه بنفوسهم عن إدراك وعرفان بالجميل ، كان بينهم قائدهم فى أشد ساعات المحنة ، واستطاع رغم سوء الظروف المحيطة به من كل جانب أن يجنبهم سوء المصير ، وأن يخرج بهم من مأزق بعد مأزق وأن يذيقهم من كأس النصر بعد جرعات الهزيمة .

كانت المعركة القديمة تعتمد أكثر ما تعتمد على روح القائد وكفاءته وحنكته فلو أن المقادير لم تهب أهل الجنوب فى أمريكا قائدهم هذا الحصيف « لى » لما استطاع أحد غيره أن ينهض بالجيش القليل البسيط فى مقدراته ، فيواجه به جيشاً يفوقه عدداً وعدة ، يهزمه مرة ، ويتراجع مرة ، ويرسم خططاً حربية يدرسونها اليوم فى الجامعات العسكرية بعد قرن من الزمان .

إن عظمة القائد لا تعرف أثناء انتصاره فحسب ، فقد يفوز قائد عديم الخبرة لأن ظروف بلاده وأحوال عدوه قد جعلت النصر فى ركابه بغير مجهود . وقد ساعدت المقادير « سيبيو » فهزم هانيبال ، ولكن اسم سيبيو غير مشهور أما هانيبال فسيبقى فى الخالدين . . ، كذلك انتصر ولنجتون على بونابرت — أشهر عبقرية عسكرية — فلم يقل أحد أن ولنجتون أفضل من بونابرت ، ولا أن مونتجمرى أحسن من روميل ، بل الحكم الحقيق هو الذى يصدر بعد مراجعة الظروف ودراسة الموقف والحالات التى جرت فيها المعركة .

والحق أن أعظم معركة خاض غمارها « لى » هى معركة أبوماتوكس التى

هزم فيها أمام الجنرال جرانت ؛ وهذا حكم التاريخ للجنرال « لى » بالبطولة وهو خارج من الهزيمة، واصطلحوا على وضعه بين عظماء العسكريين من غير أن ينتصر فى معركته الأخيرة .

ولد الجنرال « لى » فى يناير ١٨٠٧ فى ستاتفورد بولاية فرجينيا ، واشتغل مهندساً بعد دراسته فى مدارس الكسندريا ، ثم ويست بوينت ، « الأكاديمية الحربية » والتحق بالجيش فظهرت كفاءته العسكرية ، وأخذ يشق طريقه قدما فأختير أستاذاً بالمدرسة الحربية ثم قاد فرقة الخيالة فى تكساس .

وظهرت إصالة الجندى ومدى تشبعه بالروح العسكرية الوطنية وبعده عن المظاهر حين دعى لقيادة قوات الولايات المتحدة ؛ ولكنه فضل أن يبقى جندى فرجينيا الأول ، بين جنوده ، ليحمى هذه الرقعة من الوطن التى شب عليها وتعهد لها أن يحمى ذمارها .

أجمع المؤرخون العسكريون على أن « لى » كان رجلا فاضلا فكان إمام المدرسة التى ترى أن خلق الرجل العسكرى هو أساس عظمته ، وأنه لا نجاح لقائد لا يستند إلى مبادىء الشرف والكرامة ؛ فكان « لى » فى الحرب جنديا بسيطاً يعيش كأحد جنوده بلا ترف ولا إسراف ، وكانوا فى وطيس المعركة يلتفون حوله لحمايته ويسحبونه إلى الخلف رغماً عنه ، وهو رابط الجأش ، غير مبال بما يتعرض له من خطر ونار . . ولم يكن ينام فى حجرة أنيقة ، وإنما فى خيمة بسيطة بها كرسى ولوحة ذات أقلام عليها طبق وفنجان . . وسكين وشوكة فى بعض الأحيان .

وكان « روبرت لى » يتلقى تبعات الحرب بصدر رحب ، ولا يخشى أية مسئولية مهما بعدت عن نطاق دائرته ؛ كان يوزع النصر على ضباطه وجنوده بينما يجمع فى رأسه ويحمل على كتفيه مسئوليات غيره ، ولا يترك لنفسه أى قدر من الفخر والنصر .

وقد عرف جنوده أن قائدهم هو صديقهم الأول ؛ ولكن احترامهم له بلغ نهاية التقدير ، فلما حلت بهم الهزيمة فى إحدى المعارك خيم البؤس عليهم ، وفجأة طلع عليهم « روبرت لى » فلم يبق جندى على حاله ، بل قفزوا جميعاً من فرحهم بلقائه وكانوا يهتفون له ويتصايحون ؛ وهم أنصاف عراة ؛ بين جوعانين ومهزومين ؟!

وعلى الرغم من أن أهل الجنوب كانوا يحبون الحرية الحمراء إلا أن قائدهم « روبرت لى » كان رجلا طيباً أميناً بسيطاً ؛ وبهذه الصفات كسب قلوب رجاله وكان يبدو دائماً رجلا نظيفاً أرستقراطياً ، ولكن كان جنتلماناً مثالياً .

لم يكن « روبرت لى » قائداً مدعياً وإنما كان جندياً بسيطاً ، وهذا سر عظمته وكان ضد الرق مثل وشنطون وجفرسون .

وقد أمضى إثنين وثلاثين عاماً فى الجندية ولم يفكر طوالها فى الجاه والمنصب ، ولم يفكر فى النفوذ والحكم ؛ فقد ظل من المؤمنين بأن للجندى ميداناً وللسياسى ميداناً آخر ؛ فقد عرضت عليه رياسة جيش الولايات المتحدة ولكن آثر قيادة الجنوبيين ! فهو رجل لا يبحث عن الفوائد الشخصية ولكن عن « الواجبات »

فاختار أن يحارب لحماية فرجينيا ، وقد كان والده يقول : فرجينيا مملكتنا ، وكان هذا أيضاً هو مبدأ « روبرت لى » .

أما بعد ، فهناك حلم طاف طويلا بأذهان الأمريكيين ؛ ولكنه لم يتحقق . . إنك تسمع إلى اليوم من يقول لك :

« أى مكانة كانت تحصل عليها أمريكا لو كان لنكولن رئيسها ، وروبرت لى قائد جيشها » !؟

القائد المليونير

قد يتبادر إلى ذهن القارىء — من هذا العنوان — إننى محدثه عن أحد قواد الولايات المتحدة الذين يكسبون المعارك العصرية بملايين الدولارات أو أحد قواد نابليون الذى كان يسرف فى مكافأتهم بالضياع والامارات ، أو أحد قواد كسرى الذى ضربت بكنوزه ونفائسه الأمثال . . .

ولكنى بسبيل الحديث عن جندى عربى ، من العشرة الذين وعدوا الجنة وأحد الأبطال الأطهار الذين شبوا فى الحرب تحت لواء الإسـلام فعركتهم النوائب وصقلتهم الأحـداث حتى كانوا يقبلون على الموت فيفر منهم الموت ويجرى فى ركابهم النصر وتتخاذل أمام شجاعتهم وبسالتهم القلاع وتزول الحصون .

... ذلكم هو الزبير بن العوام .

وهو قائد لو تعلمون عظيم ... أو لم يقل عنـه عمر بن الخطاب أنه « رجل بألف رجل » !

كان الزبير فتى حين سمعت البادية بدعوة الإسلام ، فأعمل فكره فى أمر هذه الدعوة المباركة التى تحض على الخير وتنهى عن المنكر ، وشرح الله صدره

للإسلام فكان خامس من أسلم وعمره حينذاك ست عشرة سنة ، وقد قربه الرسول بعد خبرة طويلة فى الحرب وصحبة كاملة فى الجهاد فأولاه ثقته وكان عليه الصلاة والسلام يقول :

« إن لكل نبي حوارياً ، وحوارىّ الزبير بن العوام » .

اشترك المجاهد الفتى فى جميع حروب النبي وكان من رجال الصف الأول فى كل واقعــة فلم يتراجع قط ولم تعرف ساحته الهزيمة ، وكان سيفاً من سيوف الله .

من أبرز الوقائع التى اشترك فيها الزبير فتح مصر ، وقد كانت تلك المهمة موكولة إلى عمرو بن العاص الذى طوى الفيافى والقفار فى غزوة مظفرة حتى بلغ الفسطاط . وهناك صمد له حصن بابليون فكتب إلى أمير المؤمنين يطلب مدداً ، فأرسل إليه عمر أربعة آلاف رجل وعلى رأس كل ألف « رجل بألف رجل وأحد هؤلاء . . الزبير بن العوام » .

وقد درس الزبير الموقف وجال ببصره حول الحصن العتيد فأدرك فى التو أن الأمر لا تنفع فيه القوه وحدها ، ولا بد من حيلة ومفاجأة إذ أن الحرب خدعة ، والتضحية فيها واجبة . . . ومثلما كان الأسكندر المقدونى يتقدم جنوده فى ساحة الخطر ومعمعان الموت تقــدم الزبير فصعد إلى أعلى الحصن رغم ما فى ذلك من خطر محقق ، وأخــذ يكبر والجنود يرددون تكبيره حتى وقع فى روع المدافعين أن هذه صيحة النصر وأن المسلمين قد نجحوا

فى دخول الحصن فارتج عليهم وضل تفكيرهم وأطلقوا أرجلهم للريح ولاذوا بالتسليم والفرار.

وتم الاستيلاء على حصن بابليون بعملية خداع وقائد شجاع.

وكان الزبير خبيراً بالتجارة قديراً فى استغلال أمواله كثير الإحسان فبارك الله له، وبلغت ثروته نصف مليون دينار؛ وكانت له فى الكوفة والبصرة والفسطاط والأسكندرية قصور تشهد بخيرات الإيمان والإحسان.. ولكن أعظم ممتلكات الزبير بن العوام كانت بلا مراء: سيفه.. ذلك السيف الذى طالما فرّج الكربة عن رسول الله.

الجنرال الرهيب

«إن هـــذا الجبار —
الذى كانت صناعته سفك الدماء
ونهب الأعمار — كان فى أعماقه
الرجل المسالم النبيل»

نظر أحدهم فى معرض الصور الشخصية فملكت عليه المشاهدة كل حواسه واستخفه الطرب فصار يبسم لهذا الوجه، وجه الفريد دى موسيه، وينحنى أمام هذا الوجه، وجه فيكتور هوجو، ويرفع قبعته لمازينى وبيوس الحادى عشر ومدام دى بومبادور وفجأة اختفت الإشراقة وغاضت الابتسامة عند ما أصبح أمام صورة نابليون بونابرت فأشاح بوجهه كمن أصابه مس من الشيطان.

ولعل الرجل كان نمسويا تقطعت رقاب أجداده فى استرلتز، أو إيطاليا دكت أرض بلاده حوافر الجواد الأبيض، أو أسبانيا خضع أسلافه لقاهر أوروبا.. حتى إذا رأى صورة مارد الحرب طافت برأسه ذكريات الدم المراق والأشلاء المتناثرة فلم يتحمل مجرد النظر إلى صورة الجنرال الرهيب!

مثل هذا الرجل كثيرون يحكمون على الأشياء بظواهرها فرجال العسكرية فى نظرهم رجال قساة عتاة ذوو قلوب متحجرة وعواطف جامدة وصناعتهم هى سفك الدماء ونهب الأعمار وتدمير المدائن وإهلاك القرى ! ؟ ولو أنهم دققوا النظر وأنعموا الفكر لبدت أعظم القلوب خلف هاتيك الوجوه الجامدة وأرق العواطف تحت ذلك القناع الوهمى من القسوة والرهبة .

إن رجال الحرب لم ينزعوا أفئدتهم ولم يقضوا على ضمائرهم حين ارتدوا ثياب الجندية وتمنطقوا سيوفهم وغداراتهم . . وهم حين دعاهم الداعى إلى القتال ولم تكن من خوض الحرب مندوحة تقدموا إلى ساحة الخطر ومعمعان الموت وليست لهم من غاية إلا الدفاع عن الحمى والإبقاء على الشرف والكرامة دون أن تخامرهم رغبة فى سفك الدماء أو ميل إلى التخريب والتدمير .

وقلما تجد فى تاريخ عظماء العسكريين وفى حياتهم الخاصة غير صور البطولة والعزة والكرامة أما قوة الشكيمة وصعوبة المراس فهى من مقتضيات المهنة وحدها وفى ظنى أن أكثر العسكريين الأصلاء إنما كانت نفوسهم تنطوى على حب الخير والرحمة والحنان والعدالة على ذلك النحو الذى وصف به المتنبى أميره سيف الدولة بن حمدان :

قسا فالأسد تفزع أن تراه

ورقّ فنحن نفزع أن يذوبا

وهكذا نابليون المفترى عليه ! كان فى أعماقه الرجل المحب لخير الإنسانية

والوطني الراغب فى سلامة وطنه . كان بنّـاء وإن هدم رغم أنفه ومسالماً وإن حارب على اضطرار . . كان رجلا ينشر العلم ويوطد العدالة ويحقق الرقى حيث أسال دم الفتوح . . وقد ظل يحارب زهاء عشرين عاماً متمنياً أن تفيء بريطـانيا إلى رشدها فتتفهم أمنيات ذلك العبقرى فى عالم جديد من العلم والنظام والحرية والآخاء ، وقد كتب إلى الملك جورج الثالث يقول : « إننى لا أرهب الحرب ولـكن السلام هو أمنية قلبي » فلم يرد عليه ملك الإنجليز لأن انجلترا لم ترد منـافساً فى سبيل سيادتها على سياسة الدولة وسيطرتها على أمور الدنيا فألبت عليه الحكومات وأشعلت فى وجهه الحروب .

ولم يكن نابليون غليظ القلب كما صورته الدعاية الغاشمة ولـكنه كان إنساناً براً ومفكراً حصيفاً يمتلىء قلبه بعواطف الحب والأبوة والوفاء وإنك لتجد فى رسائله إلى جوزفين وكتاباته إلى النسر الصغير وخطبه فى جنوده ومذكراته إلى المجمع العلمى واللجنة التشريعية ما يفصح عن عواطف نبيلة وأفكار سامية إلى نظرات صائبة وعبقرية مواتية .

وقد اتهـم المارشال لودندروف بأنه رجـــل فظيع وأنه بعناده قد جرّ على ألمانيا البلاء فقد كان وحده الذى يرفض التسليم ويحرض على استمرار الحرب ويطالب بالقتال إلى النهاية . . إلى الموت ! ولـكن قلب لودندروف ما كان يتوق لأمنيات شخصية فقد حقق أعظم ما يتطلبه الإنصاف من أى فرد وبلغ أعلى الدرجات العسكرية ولـكنه كان أميناً على شئون أمته التى ألقت بها بين يديه حريصاً على استعادة مجدها الذى أخذ ينهار أمام ناظريه . . تواقاً إلى انتزاع النصر ، ولوكان

بين براثن الموت أما هواتف قلبه فقد سجلها فى مذكراته إذ يقول « ان حياتى كلها كانت وقفاً على خدمة الوطن والامبراطور والجيش وما كنت أعمل فى سنوات الحرب الأربع إلا لإنهاء هذه الحرب » .

وكان جورج وشنطن مزارعاً مسالماً لا يعنيه سوى تنمية زراعته وتنظيم حياته الريفية فلما دوى نفير الجهاد انقلب رجل السلم محارباً مغواراً وأصبح جندى أمريكا الأول الذى قاد جنوده مهلهلى الثياب حفاة الأقدام وشاطرهم آلام البرد والجوع والمرض والويلات . وظل سبع سنوات عجاف قائداً عاماً للجيش الامريكى بغير أجر فهذا المحارب الباسل الذى كانت صناعته القتل والتدمير كان فى أعماقه الرجل النبيل المسالم .

وعرف عن الأسكندر المقدونى أنه كان محارباً جسوراً لا يرهب الموت ولا يحجم عن ارتياد الأهوال ولكنه كان رجلا رقيقاً مهذباً لا يضرب خصمه بعد المعركة ولا يتشفى من غريمه المتجرد من سلاحه . فلما انتصر على داريوس ملك الفرس عامل الشعب معاملة طيبة ورفض أن تحمل إليه زوجة داريوس وقد كان جمالها مضرب الأمثال ، بل أنه حرم ذكر إسمها فى مجلسه وقال : « إننى لم أحارب لتعذيب الناس ولكن لتأدية رسالة عليا » وكان هذا الرجل الذى نكل بالجيوش وقوض الممالك وغزا الدنيا القديمة محباً للعلم والثقافة والحكمة وكان يقول : « لو لم أكن الأسكندر لوددت أن أكون ديوجين » .

وعند ما انتصر تيمورلنك — المحارب الهمجى — على بايزيد قائد الترك « الملك الصاعقة » أقامه فى ضيافة خاصة معززاً مكرماً وعامله معاملة الملوك

فلم تتغلب قسوته ولم تنسه شدته فى الحرب عاطفته كإنسان ولم تستطع شهوة الانتقام أن تنفذ إلى قلب القائد الرهيب الذى قيل عنه: أنه كان أفاقا همجياً كما تحكمت فى كثير من رجال السياسة وأقطاب الدول فى أيامنا هذه .

وقد عرف عن القواد العظام الذين اشتهروا بالعنف والقسوة فى حروبهم أنهم كانوا على جانب كبير من روح الفكاهة وعاطفة المرح والدعابة ، وقد روى أن المارشال فوش قائد الحلفاء فى الحرب العظمى الأولى زار الولايات المتحدة فانتدبت وزارة الحربية أحد ضباطها لمرافقته فى تجواله فاغتبط الضابط المنوب أيما غبطة بهذه الفرصة السانحة التى ستتيح له الوقوف على نظرات وآراء القائد العظيم والاستماع إلى كلمات وملاحظات تضاف إلى خوالد الكلم . . فلما بلغا قمة عالية بين الصخور والمرتفعات ألقى المارشال بنظره إلى هوة عميقة تحت أقدامه . . واستجمع الضابط أنفاسه واستعد لتسجيل كلمات المارشال العظيم ، فسمعه يقول :

ياله من مكان مناسب . . ليلقى المرء فيه بحياته !؟

ملكان .. فى كمين

عنـــد استرلتز كان الملتقى
واصطدام النسر بالمستنسرين
صدت شاه الروس والنمسا معاً
من رأى شاهين صيداً فى كمين ! ؟

شوقي

عند ما توّج نابليون نفسه أمبراطوراً على فرنسا فى عام ١٨٠٤ كان السلم مستقراً فى أحضان صلح أميان الذى عقده مع انجلترا وسحب بموجبـــه قواته من مصر .

ونظر الإمبراطور إلى رقعة إمبراطوريته ، ولم يعجبه الحال ! ؟

وقال : لقد جئت إلى الدنيا بعد فوات الأوان ، ولم يعـد هناك شيء عظيم أفعله ! . ما أبعد الفرق بينى وبين العظماء الذين صاروا فى التاريخ . . إن الأسكندر بعد غزو آسيا أعلن أنه ابن الإله جوبيتر . . وصدقه العالم كله ! إلا أمه أوليمبيا

وأستاذه أرسطو . . أما أنا فاذا أعلنت نفسى إبنا لأحد الخالدين فان زوجة أى صياد سمك سوف تضحك وتهزأ بدعواى ! .

كان الأمبراطور نابليون يحلم بالشرق ، وإمبراطورية عظمى ، وسلم مقيم . .

ولكن كان يفسد عليه حلمه الجميل : كابوس . . الأسطول البريطانى .

فكيف يدحر بريطانيا ؟

لقد فكر نابليون فى حصارها اقتصاديا ومنع مراكبها من دخول الشاطىء الأوروبى .

وفكر أن يشتبك معها فى معركة فى عقر دارها !

وكان يقول : آه لو تمكنت من وضع قدمى على هذه الجزيرة !

وراح يفكر وينظم ويبتكر فى تدريب أسطوله وجيشه ، ولكنه للمرة الأولى شعر بمرارة الإخفاق ، لأنه لم يكن إخصائياً فى الحرب البحرية .

ثم انقلب يدعو إلى السلم . . فراحت مقترحاته هباء أمام تصميم إنجلترا ودسائسها .

وكان الحل الأخير — فى نظر الأمبراطور نابليون — أنه لا يكون هناك سلم إلا إذا كانت أوروبا كلها فى يد إمبراطور يجعل من ضباطه ملوكاً عليها . . فحوّل جمهورية إيطاليا إلى مملكة وراثية يحكمها ابن زوجته « أوجينى » ، ثم ألحق بيدمنت وجنوه وبارما بأملاك فرنسا ، وراح يضم سويسرا ، ويدفع الولايات الألمانية إلى الاتحاد . . داخل قبضته !

هذا بينما كانت إنجلترا تمد حبالها فتطوى النمسا وروسيا والسويد .. فى حلف جديد ، لتهزم نابليون !

ونشبت الحرب .

والتقى الجيشان الفرنسى والنمسوى فى أولم Ulm أكتوبر ١٨٠٥ وأحرز نابليون نصراً مؤزراً بفضل عنصر المفاجأة . . وقال :

لقد قبضت على الجيش بحركة يسيرة !؟ ولقد ثبتت هذه الحركة قدم الامبراطورية مثلما ثبتت « مارنجو » قدم القنصلية من قبل .

ودخل نابليون « فينا » ، بينما انضمت فلول قوات النمسا إلى قوات روسيا . . وكان الملتقى فى استرلتز . . وأحرز الامبراطور انتصاراً تاريخياً ، جعل « وليم بث » رئيس وزراء بريطانيا يقول « علينا أن نطوى خريطة أوروبا . . فلا حاجة لنا بها لمدة عشرة أعوام » !

وكان الامبراطور نابليون خلال المعركة يرتدى حلة الجندى بجميع تفصيلاتها ويجلس بين ضباطه على الأرض ويحيا حياة الجندى العادى . وقد كتب لزوجته يقول :

« لقد هزمت النمسا والروسيا معاً ، وانتهيت الآن فقط من المعركة ولا بد لى أن أذهب إلى الفراش لأول مرة منذ أسبوع ! وسوف أنام فى غرفة نوم البرنس كونتز . . عسى أن أنام ساعتين أو ثلاث » !

سياسة العسكريين

تميز القرن العشرين بقيادة العسكريين فألقت معظم دوله بمقاليدها إلى جنود أقوياء أذكياء يهيمنون على شئونها الداخلية والخارجية.

والحق أن الحال تطورت بحيث أصبح لا غنى عن رجل يقرن إلى المواهب العسكرية أرقى الصفات السياسية، حتى يستطيع أن يعد لكل أمر عدته فقد انقضى العهد الذى كان فيه رجل السياسة يحمل التبعة فى أثناء السلم ورجل السيف يحملها فى أثناء الحرب، وها نحن أولاء — بعد حرب ضاعت فيها أرواح الملايين نتحدث عن الحرب المقبلة ونستعد لها ونرى رئيس الولايات المتحدة — وهى أقوى دولة فى العالم — يقول: «علينا أن نحتفظ بجيشنا وأسطولنا وقوتنا الجوية، ونعززها باحتياطى كبير من المدنيين المدربين»!

وهكذا لا تنتهى مهمة الرؤساء العسكريين بانتهاء الحرب، وأصبح من الخير لكل بلد أن يجمع قادتها بين المناقب السياسية والعسكرية، ومما يسترعى النظر أن كثيرين من رجال العسكرية قد تضلعوا من العلوم الحديثة وألموا بأساليب السياسة لأنها وثيقة الصلة بالحرب وكان لهذا التطور الحديث أثره فى نضج العقلية العسكرية

مما أكسبها الرجاحة والكفاية وحسن التبصر . . ولذلك رأينا حكاماً وساسة عسكريين من الطراز الأول مثل الكابتن أنتونى إيدن ، والجنرال إيزنهاور ، والبكباشى عبد الناصر ، والمارشال بولجانين ، والجنرال فرانكو .

وصفوة القول أن تربية العسكريين أصبحت مزيجاً من التربيتين العسكرية والمدنية ، فإذا ما قدرنا خبرتهم فى فنون الحرب مقرونة إلى خبرتهم فى الشئون المدنية كان لنا أن نطمئن إلى هيمنتهم على السياسة .

لقد جرّب العالم فى الماضى سياسة السياسيين ، فما أحراه أن يجرّب اليوم « سياسة العسكريين » ويعمل بمشورة ابن ساعدة الإيادى ، وقد قال قبل مئات السنين :

وقلّدوا أمركم لله درّكمو رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عضّ مكروه به خشعا

نوادر العسكريين

لا غرو أن يبدأ الحديث بنابليون بونابرت أشهر عبقرية عسكرية . وضع مبادىء الحرب الحديثة وأخرج القانون الذى استوحته الأمم المتحضرة ونشر الثقافة الفرنسية فى كل غزوة . . فكر فى إنشاء الكوميدى فرانسيز وهو يصارع حرائق موسكو . وصفه « نيتشة » بأنه المثل الأعلى للبطولة وعبَّر « دوناى » عن أمنية فرنسا بقوله « ليته يعود » .

ولعل أعظم ما أحبته فرنسا فى نابليون أنه سقاها كؤوس النصر والفخار فوهب جنوده أنفسهم له حتى كان اسمه آخر ما ينطقون به وهم يعالجون سكرات الموت ، وفى هذا أنشأ « هوجو » قصة طريفة ذكر فيها أنه ظهرت فى إحدى معارك نابليون هوة تساقط فيها الجنود وحاول أحد إخوانهم إنقاذهم فتدلى بحبل فى هذه الثغرة السحيقة دون أن يسمع لهم صوتاً وبعد أن امتد به الحبل مائة متر أو تزيد أخذ يصيح : انتظروا ... إننى أسمع همساً من بعيـــد ... أسمعهم يهتفون : « يحيا الأمبراطور » !

وإذا ذكرنا نابليون فلا غرو أيضاً أن نذكر خصمه الكبير ولنجتون .

كان ولنجتون جندياً باسلا ولعله أعظم قائد عرفته بريطانيا ، وقد كان يقف وسط

جنوده فى أشد أدوار القتال . . ولما أزفت الساعة الحاسمة فى معركة « ووترلو » حاول ضباطه أن يبعدوه عن منطقة الخطر ، فصاح فيهم قائلا « ليست لحياتى ضرورة بعد اليوم ، فقد ربحت المعركة » .

على أن ولنجتون لم يبلغ ما بلغه نابليون من واسع الشهرة ومثل هذا يقال عن « سيبيو » الذى انتصر على « هانيبال » . . . ورب هزيمة أشرف من انتصار !

والشجاعة فى مقدمة الصفات العسكرية ، فمن المتفق عليه أن الخوف شىء لا يعرفه العسكريون ! كانت الممثلة العالمية سارة برنار متطيرة ذات ليلة فتأخر ظهورها على المسرح فصعد إلى غرفتها أحد جنرالات فرنسا وسألها عن الأمر فقالت : « إننى خائفة ياسيدى الجنرال » فقال : خائفة . . . ما معنى هذا ؟ فالتفتت إلى أحد الممثلين وقالت :

« معذرة . . . هات قاموساً للجنرال » !

وكان خالد بن الوليد من مشاهير قواد العرب حتى فاز بلقب « سيف الله المسلول » هذا المحارب الفذ الذى قاد جنوده من نصر إلى نصر ، ومضى براية الإسلام من قطر إلى قطر ضرب المثل الأعلى للجندى فى إطاعة الأمر . فقد عزله الخليفة عمر بن الخطاب وولّى عليه أبا عبيدة . . فصدع بالأمر فى الحال !

وعند ما حضرته المنية قال قولته المشهورة على فراش الموت : لقد شهدت مائة وقعة أو تزيد وما ببدنى موضع شبر إلا وفيه أثر طعنة ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت العير . . فلا نامت أعين الجبناء !

وكان المتنبي يصف وقائع سيف الدولة ويشيد بجيشه اللجب ولست أدرى أى شعر كان يقوله المتنبي فى جيوش ستالينجراد أو العلمين إذا كان قد قال فى جيش أعداء سيف الدولة :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفى أذن الجوزاء منـــه زمازم

تجمَّع فيـــه كل لسن وأمة

فما تفهم الحـــداث إلا التراجم

وترى ماذا كان يقول فى فون باولوس وزوكوف وإيزنهـاور إذا قال فى سيف الدولة :

نهبت من الأعمار ما لو حويته

لهنئت الدنيـــا بأنك خالد

أقوال العسكريين

بلغ كل قائد من كبار العسكريين شأواً فى ناحية معينة من النواحى المعنوية أو الفنية جرت عليها شهرته وظهرت له فيها نظرات وسجلت له أقوال مأثورة تتدارسها الناشئة العسكرية جيلا بعد جيل .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ملماً بفنون القتال فى عهده حتى ليقال أنه جمع من الصفات العسكرية ما يضعه فى مصاف القواد الأوائل ، وقد كان فى مقدمة وسائله بث الروح المعنوية فى رجاله ، وتدمير معنويات خصومه ، فيقول : « نصرت بالرعب »

وكان هانيبال بطل قرطاجنة محارباً جسوراً ديدنه الانقضاض على العدو ومن أقواله المأثورة « إننى لا أنظر خلفى مهما يحدث » .

أما المدرسة العسكرية الألمانية فيكاد يتفق أساتذتها على أن الحرب هى الهجوم . قال كلاوزفتز قولته المشهورة « الهجوم خير وسائل الدفاع » وقال فردريك الأكبر « عليك بالهجوم ، فإن خير وسيلة لاتقاء شر جيرانك هى أن تقضى عليهم » ! وكان شعار بسمارك « الدم والحديد » وقال المارشال مولتكة الكبير عندما أحدق بالجيش الفرنسى فى سيدان « الآن صار الفأر فى المصيدة » !

وسئل المارشال لدوندروف عن رأيه فى الموقف الأخير ــ خلال الحرب العظمى ــ فقال « القتال إلى النهاية . . . إلى الموت » .

وتعتمد المدرسة الإنجليزية على صفتى الصبر والثبات ، ففى معركة ووترلو سأل أحد الضباط قائده ولنجتون عن « أوامر اليوم » فقال « الثبات حتى تفوز أو يهلك آخر رجل منا » وكان قائد الأسطول « راليه » يعتقد أن سيادة بريطانيا رهن بالفوز البحرى فقال « إلى البحر . . فاذا فزنا سادت بريطانيا » وقد حدث أن كان يوم ١٩ يوليو ١٥٨٨ موعد سباق بحرى بين السفن الإنجليزية ولكن ظهر الأسطول الأسبانى فى صبيحة ذلك اليوم متأهباً لمحاربة الأسطول الإنجليزى فما كان من السير فرنسيس دريك إلا أن أمر بمواصلة الاستعداد للمباراة قائلا : « لنا متسع من الوقت لإتمام السباق . . ثم كسر الأسطول » ! ؟

وقد فاز الجنرال فرانكو فى الحرب الأسبانية بفضل سلاح جديد كشف عنه بقوله : « عندما أتقدم من مدريد بطوابيرى الأربعة يكون الطابور الخامس قد مهد لى غزو العاصمة »

وتجرى سياسة روسيا العسكرية على أساس التراجع وإنهاك العدو حتى يصل إلى الميدان الذى تختاره القيادة لتضرب ضربتها . فالدفاع على طول خط الرجعة هو أسلوب روسيا التقليدى وقد قال فى ذلك الجنرال رودمستيف « علينا أن نقاتل شارعاً بعد شارع وبيتاً بعد بيت وطابقاً فى أثر طابق » .

ويلوح أن الفرنسيين يؤثرون الدفاع فقد صار شعارهم فى الحرب رغم قول

فوش « فى الحرب افعل كل ما تستطيع لكى تنتصر » وقال بيتان فى موقعة المارن : « لن يمروا » . . وقالت جان دارك — دون أن تبارحها روحها النسوية — « إننى لا أستطيع أن أرى الدم الفرنسى دون أن يقف شعر رأسى » وقال ديجول « إن النصر متوقف على شخص القائد قبل أى عامل آخر ، فلا بد للإنسان من ترفعه عن أهوائه وعلوه على نفسه ليستطيع أن يقود غيره ويحرز النصر »

أما أروع كلمات نابليون فكانت إشارة من يده يوم دارت عليه الدائرة فى معركة ووترلو ولاحت له فى اللحظة الأخيرة بارقة من الأمل فنادى حرسه الامبراطورى ، ثم مد سبابته مشيراً إلى الإنجليز دون أن يلفظ كلمة ! فاندفعوا إلى وادى الموت وهم يهتفون :

يحيا الإمبراطور .

أعياد العسكريين

لكل بلد أعياده التى تواضع عليها السلف ، وجادت بها المناسبات السعيدة ، فتقام الاحتفالات ، وتنظم الزينات ، وتقدم أنواع المباهج والمسرات ، حسب التقاليد المتوارثة والعادات المرعية .

ولعل من أزهى الأيام وأكرمها وأحقها بالتمجيد والتخليد أيام النصر ، وهى وإن كانت للعسكريين أعياداً خاصة إلا أنها أعياد خالدة للأمة جميعاً ، وقد جنبها الله شر الهزيمة ومنحها النصر والفخار .

وقد أثر عن قدماء المصريين احتفالهم بالانتصار فى الحرب احتفالا دينياً تقام فيه الشعائر ثم يتبع ذلك حفل عام تقدم فيه المأكولات والمشروبات وتدق الطبول ، ويظل هذا اليوم عيداً رسمياً يحتفل به فى كل عام إلى أن يجد جديد من الانتصارات .

وفى عهد كليوباترا احتفل بانتصار أنطونيو — فى الجولة الأولى من حروبه ضد اكتافيو — احتفالا بهيجاً حفل بألوان الطرب والسرور والطعام والشراب والرقص والمرح ، وقد سجل « شوقى » فرحة كليوباترا بقوله :

هو والله نشيدى والمغنون جنودى

والخاريق التى تخفـ ـق من بعد بنودى

أيها البنتان هذى ليلة العيـد السعيد

وعرف عن العسكريين البروسيين عادة الاحتفال بذكرى النصر وأخذ الألمان عنهم ذلك . ومن احتفالاتهم المأثورة ذكرى موقعة « تاننبرج » التى انتصر فيها لدوندروف على الروس فى الحرب العظمى . . وفى الوقت الذى كان الحلفاء يحتفلون فيه بعيد الهدنة كان الألمان يقيمون الاحتفال بذكرى أول أيام الحرب الذى ركع فيه أدولف هتلر على ركبتيه شاكراً لله تفضله بنعمة الحرب على ألمانيا قائلا : « إن هذا اليوم هو عيد ألمانيا . . لقد أعلنت الحرب » !

وقد احتفل العرب بذكرياتهم الحربية وفى مقدمتها ذكرى غزوة بدر .

واحتفلت مصر الحـديثة بالأعياد العسكرية وقـد أرّخ الجبرتى أخبار الاحتفالات الباهرة التى أقيمت عند وصول البشائر بالانتصار فى « الدرعية » فكان يوم عيد عظيم أقيمت فيه « مهرجانات وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة وشنك على بحر النيل تجاه الترسانة واحتفل بهذه البشائر سبعة أيام ، ثم أعلنت حفلات نيلية تضرب فيها المدافع وتوقـد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسواريخ والنفوط .

وقد احتفلت القوات المسلحة واحتفلت مصر بيوم الجلاء احتفالا عظيما

أقيمت فيه الزينة والأفراح وخفقت قلوب الشعب وتعالى هتافه لقادة الثورة بعد خمس وستين سنة من الاحتلال .

ولا ريب أن هذا اليوم سيبقى فى مقدمة أعياد مصر على مر الأجيال وقد خلد الكتاب والشعراء فرحة مصر والشرق بهذا اليوم الأغر ، وقال فيه شاعر القطرين مطران قصيدة عصماء مطلعها :

يامصر دام علو جدك عيد الجلاء أتى كودك

مصاير العسكريين

تنوعت الروايات حول النهاية التعسة التى ختم بها المارشال روميل حياته الحافلة بضروب البطولة والمجد وأكثرها اقتراباً من الحقيقة تقول أنه أرغم على تناول السم فمات منتحراً أو مكرهاً على الانتحار وقد كان روميل من رجال الحرب ذوى الحصافة . والفضل ما شهدت به الأعداء ، فقد قال تشرشل « إنه خصم ماهر جرىء . . هل لى أن أقول أنه قائد عظيم » !!

ولكن مصرع روميل جاء على غير ما كان يجدر به ، بل جاء على غير مايتمناه جميع العسكريين من ميتة شريفة فى ميدان القتال كتلك التى عناها المتنبى بقوله :

فموتى فى الوغى عيشى لأنى

وأيت العيش فى أرب النفوس

وإنه لمن ظلم القدر وسوء المصير للجنـــدى أن لا يموت قتيلا إذا حلت به الهزيمة وأصبح أمره منتهياً إلى أعدائه يأسرونه أو ينكلون به أو يريدونه على غير ما يريد .

وفى القرآن الكريم « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

وقد اعتاد بعض الجنود الإنجليز وضع قلادة فى العنق أو حول المعصم مكتوب عليها : « مات قبل أن يدركه العار » !

ولكن هذه النهاية الخليقة برجال العسكرية لم يلقها إلا القليلين من عباقرة العسكريين ، واختلفت مصائر الآخرين بين الأسر والاغتيال والانتحار والمرض ، فانتهى مصير نابليون إلى الأسر فى « سانت هيلانة » ومات مريضاً محزونا مهيض الجناح ، وقبله مات الأسكندر حتف أنفه ، وقضى هانيبال دون أن يظفر بشرف القتل الذى حازه أخوه هاسدروبال ، وسطا الموت على قمبيز فى إحدى النوبات العصبية التى كانت تعتريه .

ومات جنكيز خان فى فراشه وهو الذى كان يحمل الموت إلى خصومه أينما تحرك على ثرى آسيا وأوربا يتقدمه الذعر ويتبعه سيل من الدماء .

وأسر الإنجليز جان دارك فأحرقوها .

ولم يصرع يوليوس قيصر فى ساحة القتال بل بطعنة خنجر من أحد المؤتمرين به وكان بينهم صديقه بروتس ! فصاح قيصر صيحته المدوية التى بقيت إلى اليوم علامة على الغدر والخيانة « حتى أنت يا بروتس » ! ؟

وانتحر أنطونيو بعد أن هزم فى معركة أكتيوم . ومات خالد بن الوليد على

فراش المرض وهو الجندى الباسل الذى لم يكن فى بدنه موضع شبر لا يظهر عليه أثر الطعن فقال قولته المشهورة : هأنذا أموت على فراشى كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء » .

وقد روى عن عبد الله بن الزبير عند ما بلغه قتل أخيه مصعب ، أنه قال :

إنَّا والله لا نموت حتفاً ، ولكن قعصاً بأطراف الرماح وموتاً تحت ظلال السيوف » .

العرب فى الحرب

اليوم ..

والهدنة فى فلسطين تتأرجح بين السلم والحرب ، تتوارد على الخاطر ذكريات العرب فى الحرب ، فيتمثل ما كتبوا فيها من صفات مجد وفخار .

وما أخال عرب اليوم إلا معتزين بمآثر آبائهم حريصين على تراثهم عاقدى العزم على أن يكونوا خير خلف لخير سلف ، فلا يقعدهم عن تحقيق أمانيهم بأس عاد ، شرفهم الأعلى أن يكونوا كما كان آباؤهم أبطالا لا تعز عليهم تضحية :

يستعذبون منـاياهم كأنهمو
لا ييأسون من الدنيا إذا قتلوا

وقد كان العرب القـــدامى رجال حرب بفطرتهم ، وكانت البادية شبيهة بالمعسكرات الحديثة ما تكاد تنطلق فيها صيحة الديدبان حتى يتدافع الرجال البواسل من كل صوب وحدب فلا تجد إلا محارباً مقداماً وجندياً مغواراً لا يقبل الضيم ولا تهدأ له ثائرة حتى يعود إليه حقه المسلوب ويسلم شرفه المنكوب .

والعرب يقدمون على القتال حين ينقض عدوهم عهد السلم، وهم يعملون بما جاء فى القرآن الكريم «كتب عليكم القتال وهو كره لكم»، «فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون».

فإذا لم تكن عن الحرب مندوحة انطلقوا إلى ميدانها انطلاق الأسود الكاسرة وانقضوا على أعدائهم انقضاض النسور الجارحة لا يبالون أسقطوا على الموت أم سقط الموت عليهم. فإذا كانت غلبة فقد انتصر الحق، وإذا كانت ميتة فإن الجنة تحت ظلال السيوف.

والموت أحب إلى العرب من التسليم أو النكوص.

قالت سودة بنت زمعة حين مرّ بها بعض الأسرى «أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم.. ألا متم كراماً»!

وإذا كان العرب قد اشتهروا بشدة البأس وقوة الشكيمة فقد اشتهروا أيضاً بالعفو عند المقدرة والرفق بالأسرى، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «واستوصوا بهم خيراً».

أما نساء العرب فقد تمثلت فيهن روح البسالة والتضحية فكن يدفعن الرجال إلى القتال ويخرجن إلى الميدان فيضربن بالدفوف والطبول ويقلن فيما يقلن:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وما كن يجزعن لفراق والد أو ولد وغيبة أخ أو زوج ، وهذه الخنساء قتل أخوها صخر — طويل النجاد رفيع العماد — وقتل أولادها الأربعة فلم تزد على أن تقول « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم » .

وكانت أسماء تدفع ابنها عبد الله بن الزبير إلى معركة ميئوس منها فيقول لها : « يا أماه إنى أخاف إن يقتلونى يمثلوا بى » فتقول له : « إن الشاة لا يضر بها سلخها بعد ذبحها »

وقالت هند زوجة أبى سفيان « والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبي لبكيت . . ولكنه لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبّة » !

فإذا كانت هذه هى تقاليد العرب فى الحرب وهذا هو شأن رجالها ونسائها فلا عجب إذا قام اليوم أبناؤهم نخفوا إلى ميدان القتال وكروا على عدوهم كرة مضرية حققوا بها قول حسان :

إذا ما غضبنا بأسيافنا　　جعلنا الجماجم أغمادها

بين الصحافة والقيادة

أثبتت أحداث الحرب ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الصحافة والقيادة وهى علاقة يجب أن تتوطد فى زمن السلم وتشتد أواصرها وتثبت تقاليدها .

والحق أن الصحافة أصدق مرآة للشعور العام ، وهى بذلك سناد قيادة الجيش إبان احتدام القتال ، وهى أيضاً خير حليف لقيادة الجيش أثناء السلم وقد أدركت هذه الحقيقة الدول العصرية فأفردت للصحافة مكاناً قريباً فى جميع المناسبات واستعانت بها الجيوش فى تأييد مواقفها والتعبير عن أحوالها وظروفها .

ومنذ قديم فطن كبار القواد إلى أهمية الصحافة والنشر والإذاعة والدعاية ، فكان قواد الفراعنة يصحبون الكتاب فى غدوهم ورواحهم لتسجيل أنباء المعارك كما تشهد بذلك آثار مصر القديمة .

وكان العرب يستخدمون الكتاب والشعراء فى الإشـــادة بمواقف البطولة وإذاعتها فى جميع الأنحاء فخلدت بذلك معاركهم وانتصاراتهم وحفلت كتب الأدب بأخبار تلك الحروب الأولى . . ولعل قصيدة من شعر المتنبى عن معارك سيف الدولة

وبطولته فى قهر الأعادى كانت خيراً له من فرقة من الجند ، إذ كانت أخباره تصل إلى معسكر الأعداء فتهز قلوبهم قبل أن ينقض بخيله ورجله :

أبصروا الطعن فى القلوب دراكا قبل أن يبصروا الرماح خيالا
بسط الرعب فى القلوب يميناً فتولوا وفى الشمال شمالا

وكان نابليون بونابرت يصحب فى غزواته لفيفاً من الكتاب ورجال الصحافة فيبعثون إلى أرض الوطن بما يكون من أخبار النصر وأنباء البطولة فكان سن القلم متمما لما يفعله حد السيف ، وكانت أنباء الصحف خير معين لرفع الروح المعنوية فى الميدان وخلف الخطوط .

ولعل أهم موقف للصحافة فى تاريخ الحرب هو ما حدث فى ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى فلم يكن لدى ألمانيا سوى خطة واحدة : هى العزم القاطع على الانتصار بالسيف . . بينما شرع الحلفاء فى استخدام أساليب مغايرة لتحطيم معنوية الألمان وإفقادهم الثقة بالنفس والقدرة على المقاومة ! وبدأت معركة النشر ، ونجح الحلفاء فى التأثير على الألمان المحاربين والمدنيين ، وعلى من يميلون إلى الألمان ، وذلك بما نشر فى الصحف ، وما ذكر فى النشرات التى أحدثت تأثيراً سيئاً فانهزمت ألمانيا معنوياً قبل أن تغلب فى القتال .

وقد فطن الألمان إلى سلاح الصحافة الذى بزّهم الحلفاء فى استخدامه ، ورأى قادة الجيش الألمانى فى عام ١٩١٦ ضرورة تلافى عواقب الدعوة الضارة ، فتقدم

الجنرال لودندروف بطلب إنشاء إدارة ترسم للصحف السياسة المثلى وتستعين بحملة الأقلام فى معاونة الجيش ورد حملات صحافة الحلفاء .

وفى الحرب العالمية الثانية وجّه نقد شديد لقيادة الجيش الفرنسى التى حجبت الأنباء عن الشعب ، حتى فاجأته الأحداث الخطيرة ، وقد كان من الضرورى أن تعطى الفرصة للصحف الفرنسية فتنقل إلى الشعب ما تراه ضرورياً من الأنباء وتنظم مع الجيش طريقة مثلى لنشر الأخبار إذ ليس القصد من الصحافة أن تقوم بالدعاية ولكن عليها أن تحمل للرأى العام ما ترى من صالحه إذاعته وأن تواجهه بالأمر الواقع كلما كان ذلك ميسوراً .

فلا معدى إذن من العناية بهذا الأمر والاستفادة من دروس الحرب الحديثة فتنشأ فى قيادات الجيوش إدارات يعمل فيها مندوبو الصحف مع المختصين فى الجيش ويتعاون الجميع فى السلم وفى الحرب على إحاطة الرأى العام أولا بأول بما يكون من المصلحة العامة نشره . . فان ظروف الحرب الحديثة تستوجب تعاون الاقلام والسيوف .

ومن شرف الأوطان ألا يفوتها
حسام معزّ أو يراع مهذب

حرب الورق

إن العدو لا يغمر خطوطنا بقذائف النيران
وحدها ولكنه يغمرها أيضاً بقذائف أخرى
من الورق . . إن هدف العدو الرئيسى
هو أن يسمم أفكارنا ويحطم روحنا

مارشال هندنبرج

بين أسلحة الحرب الحديثة سلاح عجيب يهزّ الجيوش ويهزم الشعوب دون أن يحدث جلبة أو يسيل دماً !؟ سلاح من الورق تتطاير به الكلمات والصور إلى خنادق العدو وإلى داخلية بلاده فيحدث فيها اضطراباً ويثير فزعاً قد ينتهى بهزيمة عاجلة قبل هزيمة الجيوش ، أو انهيار عام قبل أن يكون استسلام .

هذا السلاح العجيب هو الوريقات الصغيرة التى تتطاير فى الهواء والنشرات والخطابات ، والصحف والكتب ، وكل شىء يحمل إلى العدو خبراً فظيعاً أو سراً مروعاً .

والهدف الرئيسى لهذا السلاح هو حمل الانباء المعكرة والمعلومات المثيرة إلى

جنود العدو فتتأثر روحهم المعنوية ، كما ترسل إلى المدنيين خلف خطوط القتال فتفتر حماستهم وتضطرب أفكارهم ويحل بنفوسهم الوهن والتخاذل .

إن الحرب على الورق ليست حرباً سهلة ، فهى تحتاج إلى تنظيمات وخطط وفنون .. وقليلون يعلمون أسرارها وصعوباتها وأخطارها ، وقد رأينا كيف أن الحروب الأخيرة دلت على خطر الدعاية ، وكيف عصفت بأحلام الجنود وأوهنت عزائم الشعوب ، وهى التى هزمت ألمانيا فى الحرب العظمى قبل أن تفتر عزيمة الجيش وجعلت الامة تسلم قبل أن تنهزم قواتها الباسلة .

الالمان كانوا البادئين !

وقد كان الالمان أول من استحدث استخدام الصحافة الحربية للدعاية ومهاجمة الروح المعنوية لدى الأعداء ، وكانت أول حملة صحفية معادية يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٤ حيث ألقى الطيار الألمانى « هرس » ثلاث قنابل على باريس تطايرت منها وريقات جاء فيها :

[الجيش الألمانى على أبواب باريس . . . لا مفر من التسليم] !

هكذا بدأ الألمان تثبيط العزائم ، وإيهان القوى ، وتحطيم الروح المعنوية ثم أتبعوا الدفعـــة الأولى بالقاء المنشورات على الأماكن الهامة فى باريس والمدن الكبرى .. فهبطت فى ساحة الأوبرا والأسواق العامة والميادين الرئيسية مثلما نزلت

غيرها فى الخنادق وساحات القتال ، وألقى رجال سلاح الطيران الألمانى القصاصة المشهورة :

[أيها الجنود الفرنسيون : سلموا]

وأصدر الألمان عدة صحف للدعاية فكانت المطابع تنتقل مع رياسة القوات وتدور بلا انقطاع تحت إشراف القيادة العليا . فكانت ثمة حرب ذريعة على الروح المعنوية استخدمت فيها الطائرات والبالونات ، وقابل الحلفاء دعاية الألمان بمثلها بل تفوقوا عليهم فيها . وهكذا اخترعت الأوراق مع الأسلحة والقنابل وأخذ الميزان يميل مع هذا الفريق مرة ومع الفريق الآخر مرة حتى رجحت كفة الحلفاء فى المعركة كلها ، وكان انتصار الدعاية مقدمة للنصر النهائى الكامل .

رد الفرنسيين .

وقد فطن الفرنسيون إلى أثر الدعاية الألمانية وخطرها فعاجلوها بالرد عليها فى ابتكار وسائل جديدة فأنشأوا إدارة خاصة أطلق عليها « إدارة الدعاية الحربية » وكان هدفها الأول أن تمحو الأثر الذى أحدثته الدعاية الألمانية عدة شهور فى نفوس العسكريين والمدنيين وأتبعوا ذلك بحملة كبيرة لرد الاعتداء الصحفى الذى نالهم من الألمان وشنوا حرباً ورقية استخدموا فيها الكتب والصحف والنشرات فألقيت آلاف منها بالباراشوت على الخطوط الألمانيــــة . ومن أهم المصادر التى استخدمت فى الدعاية كتاب صغير عنوانه « إنى أتهم » كتبه الألمانى « ريتشارد

جرائم ، أثناء إقامته فى سويسرا وفيها اتهام خطير للذين تسببوا فى الحرب وقادوا ألمانيا إلى الهاوية ، فطبعت منه إدارة الدعاية الفرنسية آلاف النسخ الصغيرة ، وألقتها الطائرات الفرنسية على خطوط الألمان كذلك ألقيت منشورات بعنوان « الأكذوبة الكبرى » ترد فيها على الدعاية الألمانية بما هو أشد منها .

ومن النشرات الشهيرة « الخطاب المفتوح » الذى نشره أسير ألمانى موجهاً إلى زملائه الألمان الذين دفعوا إلى الحرب ! وهو مكتوب بالألمانية ، فنشرته الجريدة السويسرية التى كانت تصدر فى بلجيكا بعنوان « بلجيكا الحرة » وكان هذا الخطاب صريحاً ومنطقياً فأحدث أثراً بعيداً فى نفوس قارئيه .

الدعاية البريطانية .

إن إنجلترا ، التى اشتهرت من قـــديم الزمان بأنها قادرة على بث الدسائس وتحريك الثورات ، والتى أقر رجالها بأنهم يستطيعون خلق الفتن كلما شاءوا . . أدركت إنجلترا أن التغلب على ألمانيا بالسيف يستحيل وأنه لا بد من إيجاد ثورة داخلية لهدم دعاة الإمبراطورية الألمانية بما فى ذلك ركنها الركين : الجيش الألمانى .

وقد نظم الإنجليز مصلحة خاصة واسعة النطاق، يرأسها لورد بيفر بروك ، ويديرها نورثكليف وكيبلنج ورذمير ، وأخذوا ينشرون آراءهم الوهمية عن الصلح وحكم الشعوب لأنفسها وتحرير الامم الضعيفة وإحكام روابط الإخاء بين أمم العالم ، وينعون على العسكرية البروسية حيويتها ورغبتها فى التسلط على العالم وحبها الاشعبى للاستعمار ، واستبدادها وعنجهيتها ! ؟

قال بسمارك : إن مهنة بريطانيا التى احترفتها منذ أعوام طوال هى استخدام الثورة ضد الدول الأجنبية المعادية .

٢٨ مليون نشرة .

واستقبلت الخنادق الألمانية والمناطق المحتلة سيلا لا ينقطع من النشرات حتى بلغ عدد النشرات ٣٠٠ ألف شهرياً ، وبلغ عددها فى خلال تسعة وثلاثين شهراً ٢٨ مليون نشرة .

وقد أحسّ القواد الألمان بخطر دعاية الحلفاء على حالة الجنود المعنوية وفى نفسية الشعب ، فبذلوا جهوداً جبارة لإيقاف هـــذا السيل ودرء الخطر ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ؛ وفى هذا يقول لودندورف : رأيت أن أتلافى الدعوة الضارة بنا فى الصحف ، فرجوت المستشار أن ينشىء تحت إشرافه إدارة ترسم لصحفنا الخطة المثلى . . إن عدم حنكتنا السياسية هى التى أوقعتنا فى أشواك الألفاظ الجوفاء التى تسىء إلى العقول » !

أقوى من الجوع .

ولعل أبلغ دليل على قوة الدعاية وأثرها الخطير على الجيش الألمانى والشعب أن قواد ألمانيا شعروا بأن النصر قد تسرب من أيديهم وأن لا طاقة لهم على منع الألمان من التأثر بدعاية الحلفاء ، فكان هذا تسليما بالهزيمة المعنوية وفى ذلك صرح المارشال هندنبورج بقوله :

« لقد شن العدو حرباً ضد الأفكار الألمانية ، ووضع الخطط لتسميم رؤوسنا ونفوسنا بهذه الحملة التى دبرها بعناية فائقة وأساليب مبتكرة » .

وقال الجنرال لودندورف :

« أن الذى أصيب به الشعب الألمانى أكثر من أزمة الجوع والضعف هو سلاح الدعاية ، لقد كان الأعداء الذين عجزوا عن مقاتلتنا بالسيف يعملون على إضعاف ثقتنا بنفوسنا وقهر روحنا المعنوية .

الحرب السيكلوجية

أعدت الولايات المتحدة هيئـــة عليا للإشراف على « استراتيجية الدعاية » إشرافاً يستند إلى الأسس السيكلوجية السليمة .. والذين درسوا تفاصيل الحروب، قديمها وحديثها يرون الجانب السيكلوجى بارز الأثر بادى الخطر فما الحرب إلا تصارع القوى الهائلة المجهولة من طبيعية وأدبية .. وإرادة الأمة هى متجه أنظار قيادة العدو دائماً ، وتحطيم هذه الإرادة هو الهدف الرئيسى .

وفى الحرب العظمى أدركت بريطانيا أن التغلب على ألمانيا بالقوة مستحيل ولا بد لقهرها من استخدام وسائل أخرى غير مادية فنظمت لهذا الغرض مصلحة خاصة واسعة النطاق يرأسها لورد بيفربروك ويديرها نورثكليف وكيبلنج ورذمير .. أخذوا ينشرون آراءهم الوهمية عن الصلح وحكم الشعوب بأنفسها وتحرير الأمم الضعيفة وإحكام روابط الإخاء بين أمم العـالم وينعون على العسكرية البروسية جفوتها ورغبتها فى التسلط على العالم وحبها الأشعبي للاستعمار .

ولم تستطع ألمانيا أن تقف فى حلبة الحرب السيكلوجية أمام إنجلترا التى حققت الدهاء السياسى ووقع الشعب الألمانى فى أشواك الألفاظ الخداعة والدعاية الجوفاء وفى هذا يقول القائد لودندورف « إن الذى أصيب به الشعب الألمانى أكثر من

أزمة الجوع والضعف هو سلاح الدعاية ! كنا نلتزم خطة واحدة لا نحاول ابتكار غيرها ، وكانت تدور حول الانتصار بالسيف . . أما الأعداء الذين عجزوا عن مغالبتنا بالسيف فقـــد عمدوا إلى إضعاف ثقتنا بالنفس وهكذا جاءت هزيمتنا سيكلوجية » .

واليوم . . وقد أدركت الولايات المتحدة عواقب الدعوة الضارة بها وما منيت به الديموقراطية من تزعزع بسبب الغزوات الروسية السلبية وغيرها فقد رأت أن تنزل إلى ميدان الحرب النفسية مستعدة منظمة فشرعت فى إنشاء هذه الأداة الجديدة للدعاية الاستراتيجية لمواجهـــة الدعاية السوفيتية والرد على ما تراه من أفكار ودعايات ولتوضيح وجهة نظرها للعالم .

فلننتظر إذن أحدث الخطط وأحذق الوسائل فى « حرب الكلام » .

هل كان أعظـم من
نابليون ، وجنكيز خان !

قاهـر العالم

.. وكانت جيوشـه تدك معاقل آسيا فتهتز
عروش أوروبا ، ويتلفت ملوكها مذعورين ..
فقد كان يريد أن يحكم الدنيـا بأسرها ! ؟

قبل خمسمائة وسبعين عاما من أيامنا هذه ، حاول رجل أعرج فى الخمسين من عمره أن يجعل نفسه حاكماً على العالم بأسره وقد حالفه التوفيق فى كل خطوة همَّ بها ، فلم يعرف الهزيمة قط .. ولم يحظ بمثل سلطانه أحد .

وهناك على قبر فى مدينة سمرقند ـــ عروس العواصم فى القرن الرابع عشر ـــ نقشت العبارة الآتية :

[هنا المكان الذى استراح فيه العاهل المعظم والسلطان الأكبر ، والجندى القوى المهيب .. السيد تيمور ، قاهر العالم]

بدأ على رقعة أرض صغيرة فى رفقة قطيع من الماشية فى وسط آسيا ! فلم يكن ابن ملك كما كان الأسكندر المقدونى ، ولا خريج أكاديمية حربيـــة كنابليون ، ولا كان وريث عصبية قبلية مثل جنكيز خان .. كما أنه لم يجد فى بلاده شعباً موحداً

كالشعب المقدونى أو الشعب الفرنسى أو شعب المغول ! ؟ وإنما هو الذى جمع الجيش ووحّد الشعب وبسط نفوذه على آسيا وأوربا ، وهزم جيوش العالم .

كان يدمر المدن ثم يعيد بناءها وفق هندسته الخاصة ، ويجعل القوافل تمر من أوروبا إلى آسيا ومن آسيا إلى أوروبا حسب النظم التجارية التى وضعها بنفسه ، ويجمع فى يده اقتصاديات جميع البلدان فيرسم خطوطها الأساسية ويضع ميزانياتها العامة . . .

كان ينتصر بالرعب ، ويدمر قلوب أعدائه من الخوف قبل اللقاء . . . هدم المدن وحصد الأرواح وأقام أهرامات من جماجم خصومه ، واندفع لغزو آسيا وأوروبا كالريح السوداء ، وكان التتار الذين يقودهم يقفزون كالشياطين وراء الغذاء والدماء والنساء !

ولقد لقبه أعداؤه بالذئب الأغبر الأكبر آكل الأرض ، بينما كان أنصاره يطلقون عليه : الأسد الغازى .

وعرفت إمبراطوريته باسم « إمبراطورية تيمورلنك » فقد تمت على يديه ، وانتهت بنهايته .

* * *

عشرات المؤلفات . . من جميع اللغات .

كتب عن تيمور كثيرون من معاصريه ، وممن جاءوا بعده من مختلف البلدان شرقاً وغرباً ، وما زالت المطابع الحديثة — رغم مرور نيف وخمسة قرون —

تصدر طبعات جديدة أنيقة ، فى كل لغة . . . ويضع كثيرون من المعقبين الحربيين تيمورلنك فى القائمة الأولى من عباقرة القادة فى جميع الأزمان بينما يتحيز بعضهم فيجعله أعظم قائد فى التاريخ كله . . بغير استثناء !

وقد ظهرت كتب عربية قديمة فى سيرة تيمور وأخبار التتار ، كذلك حظيت المكتبة الغربية بعشرات المؤلفات عن تيمور لمؤلفين روس وإيرانيين ، وهنود وصين . . ومن كبار المؤرخين الذين خصوه بعنايتهم : كلافيو الأسبانى ، وبروندنيو الإيطالى ، وفوريسار الفرنسى ، وشتيلبرجر الألمانى ، وملتون الإنجليزى الذى اتخذ منه العلامات الغالبة على شيطانه فى كتابه الأشهر « الفردوس المفقود » .

وامتازت المؤلفات التى وضعت عن تيمور بسعة الذيوع وسرعة الانتشار وقد طبع بعضها فى عدة لغات عدة طبعات ، ومن أشهرها كتاب هارولد لامب « تيمورلان : غازى العالم » الذى طبع اثنتى عشر طبعة بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٥٥

وليس بغريب أن يكون تيمور موضع عناية المؤرخين والمراقبين الحربيين إلى أيامنا هذه ، فقد كان من ناحية أعظم حاكم فى القرن الرابع عشر ، ومن ناحية أخرى أحد عظماء القادة فى جميع العصور . . كان ملوك أوربا يكتبون إليه بعنوان « أعظم الغزاة وأصلح الأمراء » . . أما تيمور نفسه فكان يوقع خطاباته بقوله « أنا عبد الله . . تيمور » .

إمبراطورية تيمور لنك

لقد كان حلم تيمور لنك الذى سعى لتحقيقه هو السيطرة على العالم ، وقد فعل !

فكان أعظم حاكم فى زمانه وسيد أكبر رقعة من المعمورة ، وقد سجل المؤرخون فتوحه وغزواته ، ومنهم من عاش فى مقر قيادته وشهد معاركه ورأى الممالك التى فتحها واطلع على خطابات ملوك أوروبا إليه ، وكان من هؤلاء النبيل الأسبانى جونزا جلافيو ، فكتب يقول :

« لقد غزا تيمورلين أمير سمرقند كل أراضى المغول والهند ثم فتح بلاد الشمس وأخضع خوازرم وإيران وميديا وبلاد الحرير وأرض الممرات كما غزا أرمنيا وأرض روم وبلاد الكرد ، ودمر دمشق ، وبابلون ، وبغداد ، وكسب معارك عديدة دون أن ينهزم فى معركة واحدة ، ولما التقى بالترك هزم قائدهم الأشهر بايزيد وأخذه أسيراً » .

وقد رأى جلافيو فى بلاط تيمور بسمرقند عشرات الأميرات والأسر المالكة ، من أكثر بلاد العالم ، والتقى هناك بسفراء الصين ومصر وبلدان أوروبا .

ويعتبر المؤرخون أن تيمورلنك هو « آخر الغزاة العظام » فقد أنشأ إمبراطورية عظمى من تفكيره وتدبيره وحـــده ، ولم يخض معركة إلا كسبها ولم يقدم على مشروع إلا كان النجاح حليفه ، فهو لم يعرف الهزيمة قط !

وكتب عنه سير برسى سيكس يقول :

« لم يسبق لقائد آسيوى فى التاريخ كله أن أعد مثل هذه الجيوش الهائلة ، ومن ثم لا يرقى لمدارج شهرته وتفوقه أحد ، وإن فعاله لتربو به إلى ما فوق مستوى البشر » .

هل كان أعظم من جنكيز خان

لقد أطلق المؤرخون على جنكيز خان وتيمورلنك «الفاتحان الكبيران» وكتب عنهما الكثيرون على محمل المقارنة، فقد كان كل منهما عبقرية عسكرية وكفاية إدارية منقطعة النظير. وإذا كان كثرة من المؤرخين يشيدون بحملات قيصر أو غزوات هانيبال أو استراتيجيه نابليون أو براعة بسمارك فليس من شك فى أن تيمور لنك وجنكيز خان والأسكندر المقدونى كانوا سادة الحرب فى التاريخ كله.

وقد يكون هناك من قاد جيوشاً كبرى أو انتصر فى معارك عالمية، ولكن اتساع ساحات القتال ومدى أثر الغزوات لم يكن أبداً مثلما كان فى عهد هولاء الثلاثة العظام. وهما يمتازان عن الأسكندر المقدونى الذى ورث عن أبيه فيليب عرشه وجيشه وشعبه.. أما جنكيز، أو تيمور فلم يرث أحدهما عرشاً ولا جيشاً ولا شعباً.. وإنما صنع كل منهما بنفسه الجيش والشعب والسلطان.

أما نابليون فقد انتهى من حروبه الكثيرة إلى الأسر بعد خسرانه معركة ووترلو، وأما بسمارك فقد أغمض عينيه عن التوسع، وأوقف عجلة الحرب اكتفاء بألمانيا.

فإذا أخرجنا هؤلاء العباقرة قيصر وهانيبال والأسكندر ونابليون وبسمارك من معترك المقارنة بقى أمامنا القائدان الأسيويان: تيمورلنك وجنكيز خان.

لقد جاء جنكيز إلى الوجود قبل منافسه فى الشهرة التاريخية. وفى رأى بعض المؤرخين أن جنكيز لم يكن يتولى القيادة بنفسه فى أغلب المعارك وإنما كان يكتفى

بوضع الخطط وتلقى الأنباء وإصدار الأوامر من مقر قيادته بعيداً عن معترك الحرب ، بينما كان تيمور يقود جيشه بنفسه ويتحمل تبعات القتال كله .

كان لجنكيز وزراء من الصين وقادة من العباقرة : سابوتى ، شيبى نويون ، بايان ، وموهولى . . قادوا المعارك وأحرزوا النصر وثبتوا أقدام المغول فى كل ميدان .

واستطاع هؤلاء المعاونون المقتــــدرون أن يحملوا العبء وأن يثبتوا الإمبراطورية فعاشت بعد موت العاهل المغولى . . أما رجال تيمور فلم يكونوا من المتفوقين أو ذوى المقدرة ، ولهذا فقد انتهت إمبراطوريته بنهايته .

وكان مغول القرن الثالث عشر ذوى طبيعة حادة وإقدام على الحرب منقطع النظير . . أما تتار القرن الرابع عشر فكانوا أقل فتوة وحمية ، وكانوا يفقدون نصف قوتهم فى غياب تيمور .

كذلك كان المغول يحاربون فى عدة جبهات وتذهب سراياهم تقاتل فى ممالك بعيد تحت إمرة هذا القائد أو ذاك . . أما التتار فلم يعرفوا الحرب إلا فى جبهة واحدة ، وفى معركة بعد معركة .

وكان جنكيز خان يضع مع قواده خطة المعركة وتظل دراستها معهم عدة أيام وربما أسابيع يقلّبون احتمالاتها ويقدرون أحداثها حتى تنضج الخطة تماماً وتتضح أحسن الحلول ، وحينذاك كان جنكيز يوجه خير قواته وقواده إلى المعركة المناسبة فيضرب المركز الرئيسى بأشد ما عرف فى الحروب من عنف وبأس حتى يقضى

القضاء التام على خصومه ويدك قلاعهم ومدنهم ويجعلها أثراً بعد عين .. أما التتار فكانوا أقل مقدرة وحماسة وبهذا كان تيمور هو مصدر القوة العظمى .

ولم يكن جنكيز يقدم على معركة لا يطمئن تماماً للفوز فيها فقد كانت حاسته الاستراتيجية متنبهة للغاية ، وكان بارعاً فى تفادى العقبات والتغلب عليها .. كان مثل نابليون يسير على تعبئة كاملة واستعداد لكافة الطوارىء والمفاجآت . . وكان يعتمد على أنه يستطيع أن يفعل الشىء المناسب فى الوقت المناسب ، ويكسب المعركة دائماً .

السيف الذى أضاء العالم !

تبدأ سيرة تيمور فى عام ١٣٣٥ ؛ بالمدينة الخضراء ، فى بلاد ما وراء النهر من أملاك شاجتاى ابن جنكيز خان ، وقد أهمل الأحفاد العناية بملكهم وانصرفوا إلى ملاذهم وقنعوا بما هم فيه من رفاهية فاضمحل نفوذهم وتركوا للولاة المحليين السلطة الحقيقية اكتفاء بما كان يرفع إليهم من أموال وخيرات .

وقد وصفت بلاد ما وراء النهر بأنها « أخصب بلاد الله وأكثرها خيراً وفقهاً وعمارة ، ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين ، وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدراً ، وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم » .

أما « المدينة الخضراء » فكانت أجمل وأزهى مدن الولاية وكان كبير شيوخها

« تاراجي » سيداً ورعاً منقطعاً للصلاة والعبادة زاهداً فى الدنيا ، وقد رأى ذات ليلة فيما يرى النائم أن عربياً مهيباً أعطاه سيفاً ، فلما لوّح به فى الفضاء أضاء الدنيا بأسرها .

فذهب الشيخ فى الفجر إلى أحد أولياء الله وقصّ عليه رؤياه فأنبأه بأن الله سيهبه غلاماً ذكياً له مضاء السيف ، وأنه سيبهر العالم كله ويفتح القلوب للإسلام وينقذ الشعوب من الهمجية والضلال .

وعند ما وضعت زوجته طفلهما أخذه إلى ولىّ الله فألفاه يقرأ القرآن الكريم فاختار له إسم «تيمور» أى حديد وقد اشتهر فيما بعد بإسم تيمورلنك Timuri Lang لما أصيب بسهم فى قدمه خلال إحدى معاركه ، فلم يعد يسير إلا عرجاً .

واشتهر عند الفرنجه — فى مراجعهم — باسم تمرلين Tamarlane

ونشأ متأثراً ببساطة أبيه ونظراته فى الحياة ولكنه كان مطبوعاً بطابع عصره وميزات شباب جيله : الفروسية والصيد والمباراة . . فكان يتلو كتاب الله ويرتاد الجوامع ويجلس إلى الأئمة يستمع إلى التفسير والحديث وكان أيضاً يعتلى صهوة جواده فيسبق أقرانه ويذهب إلى الصيد فيبزّ رفقاءه ويشترك فى مباريات البولو أو الفروسية فإذا هو سيد الحلبة وصاحب قصب السبق .

وكان قوى البنية بهى الطلعة طويل القامة عريض المنكبين كبير الرأس لامع العينين يصوبها فى محدثه فيسيطر عليه بنظراته وصوته الخفيض العميق وحديثه الرتيب وثقته بنفسه ورزانته .

وعنى تيمور بالضبط والربط فعلّم قواده وجنوده احترام النظام وسرعة تنفيذ الأوامر وأخذ يكافىء المحسن ويعاقب المقصر ويبتكر فى العقوبات . . فالجندى الذى يثبت تخاذله فى المعركة أو خوفه من القتال كان يؤتى به فيربط فى حمار بحيث يصبح وجهه فى ذيل الحمار ثم يمر هذا المشهد الطريف فى شوارع سمرقند عدة أيام حتى يراه الجميع . . فتكون فيه سخرية وعظة !

وكان شعار تيمور : الحكمة والشدة .

وقيل أنه كان « يحكم بالعدل ويسخو فى المكافأة »

ولكنه كان فظيعاً فى انتقامه ، لا يكتفى بالنصر الحربى وإنما يؤكده بالقتل والهدم والحريق . . وبذلك يعلم خصومه بالنتيجة سلفاً !

وفى عام ١٣٦٩ كان تيمور قد صار قائداً وحاكماً وغازياً لمملكة بلغت خمسمائة ميل مربع فأخذ ينظر عبر مملكته الصغيرة ويرنو ببصره إلى العالم الفسيح . . واتخذ لنفسه لقب « الخاقان الأعظم ».

وبدأ تيمور يمد بصره فيما حوله ، لم يقنع بما أوتى من ملك عريض ودولة مترامية الأطراف تجاورها ممالك قوية ذات حضارة وعسكرية مثل روسيا وفارس وتركيا والصين .

وكانت خطته فى الاعتداء مبتكرة ، أخذتها عنه بعض دول القرن العشرين فهو إذا رأى غزو مملكة أو إمارة بعث إليها رسله لعمل مباحثات ودية . . . بينما

تغوص جواسيسه فى أعماق البلاد تجس نبضها وتتعرف أسرارها . . ثم لا يصعب عليه بعد ذلك خلق مناسبة للهجوم !

أما فى الحرب فقد مضى على خطط تحدّث بذكائه وبعد نظره ومضاء عزمه فكان يسير على تعبئة كاملة ، لا يشرع فى عمل قبل أن يستجمع له جميع حاجاته وعند ما فكر فى غزو روسيا أدرك أنه لا يواجه جيشها فحسب بل يواجه الطبيعة القاسية فى تلك المفازة الثلجية ، وقدر أن عدوه أكثر اعتياداً على طبيعة بلاده وأقوى على احتمال مشاق البرد والطعام ، وعرف أنه لا يستطيع أن يحمل من المؤن ما يكفى جيشه أكثر من شهرين . . فقرر أن تكون المعركة قريبة وسريعة وفاصلة . . وأن لا يخوضها قبل انتهاء فصل الشتاء .

وكان يرى أنه من الخطل أن يسير جيش دون أن يحمل معه كل ما يحتاج إليه من ذخيرة ومؤن ومهمات .

واستخدم تيمور فى حروبه جماع النظريات الحربية ، وبرزت فى حروبه أعمال الاستطلاع والجاسوسية ، والإخفاء والتمويه ، واستخدام الاحتياط ، والمطاردة .

. . وأخيراً ، استطاع تيمور أن يضع قدمه ثابتة فى ساحة التاريخ فقد صار إمبراطوراً مرهوب الجانب معروف القدر فى زمنه وكافة الأزمان ، وحكم إمبراطورية عظمى تمتد من روسيا حتى أواسط الهند ، ومن البحر المتوسط إلى بلاد الصين ، وكان طوال حكمه الذى استمر ٣٦ سنة معنياً بالعلوم والصناعات والمدنية ، وتوفى فى عام ١٤٠٥ فى سن التاسعة والستين .

جنرالات نابليون

أين كانت تكمن قوة نابليون ؟ .

مسألة بحثها كثيرون من القادة والمؤرخين وذهبوا فيها مذاهب شتى فمنهم من أرجع قوة نابليون إلى المهارة فى وضع الخطط ، ومنهم من عزاها إلى أسلوبه فى القيادة ، أو حب الجنود له ، أو معلوماته التاريخية . . .

أما الكاتب العالمى المعاصر ، أميل لودفيج ، فقد بحث مصادر قوة نابليون من زاوية جديدة وأرجعها إلى العوامل الآتية :

(١) شبابه وصحته : فقد دخل نابليون ميدان الحرب والقيادة فى ربيع العمر . كان قوى البنية فى شبابه يتحمل ركوب جواده عدة ساعات ويكتفى بنوم قليل وكانت له معدة تهضم كل ما يقدم لها . . . !

(٢) الثورة الفرنسية : وقد ضربت بالروتين عرض الحائط ، فجعلته جنرالا وهو فى الخامسة والعشرين ، فالثورة كانت تقدر الرجال بأعمالهم وليس بسنهم ، وأعطته الفرصة .

(٣) قائد جيش الشعب : وقد كان بونابرت يعتبر نفسه قائد جيش الشعب ،

وهو تعبير ثورى يرضى الجنود ويثير حماســـة الجماهير .. أما جيوش خصومه فكانت جيوش محترقة ، تنطق ست لغات مختلفة !

(٤) ضعف خصومه : كان خصوم نابليون دونه فى كل شىء :

- أرشيدوق شارل : الارستقراطى المنعم الذى لا طاقة له بمشاق الحرب .

- جنرال بوليو : كان فى الثانية والسبعين بينما كان نابليون فى السابعة والعشرين

- جنرال كولى : كان مريضاً بالنقرس يحملونه على نقالة أثناء المعركة .

- جنرال الفنترى : كان فى الخامسة والستين وهو سن قد يكون مناسباً لوضع الخطط .. لا لتنفيذها !

.. فماذا كان يستطيع هؤلاء وأمثالهم أمام شاب دائب الحركة دائم النشاط يركب جواده عشرين ساعة ويعتمد على ضباط شبان ويقول « إن الوقت هو كل شىء » .

(٥) جنرلات نابليون : كان جنرالات نابليون الذين يعتمد عليهم من صنعه واختياره ، وكانوا يقدسون قائدهم ويخلصون له ويثقون فيه ، أو على حد قول الجنرال مورا « أيها الجنرال : إنك كبير كالدنيا ، ولكن الدنيا صغيرة بالنسبة لك » أو كما قال ناى : « أنت القائد وأنا الجندى » .

وكان أكبر معاونى نابليون سناً الجنرال برتييه فى الثانية والأربعين من عمره

وقد استبقاه نابليون لأنه كان عليما بمسالك الأقطار الأوروبية ، كذلك الجنرال مسينا خدم الجيش ١٤ سنة دون أن يصل إلى أعلى من رتبة الباشجاويش . . فجعله نابليون بعد ٧ أسابيع جنرالا ! ؟

كان نابليون لا يرقى إلا الضابط الشجاع .

لقد رفع أحد رماة القنابل بعد ثلاث معارك إلى رتبة القائمقام .

واستغنى نابليون عن جميع الجنرالات ذوى الفخامة الذين يحسنون وضع أعظم الخطط على الورق . . ويديرون المعارك بين أربعة جدران مكاتبهم الأنيقة !

كان نابليون يحب ضباطه ويفخر بهم ويدفعهم إلى المراتب والمناصب .

وكان يقول :

« لن يكون هناك سلم إلا إذا كانت أوروبا كلها فى يد إمبراطور واحد يجعل من ضباطه ملوكاً عليها . . إن امبراطورية شارلمان لا تلبث حتى تبعث من جديد . . حقاً :

« لا جديد تحت الشمس » .

أوامر الجنرال كاى شيك

أذاعت وكالات الأنباء أخيراً أمراً هاماً أصدره الجنرال الصينى تشيانج كاى شيك قائد الصين الوطنية لضباطه وطلبة الكلية الحربية .

والخبر لا يتعدى ثلاث سطور ، ولكنه عن أمر جدّ خطير .

وقبل أن أتحدث عن الأمر نفسه لابد من كلمة عن صاحب الأمر ، فالمعروف أن الجنرال كاى شيك ليس حالياً فى موقف يحسد عليه ، فقد انحسرت دائرة نفوذه وانكمش سلطانه فلم يعد يتعدى جزيرة فرموزا التى تعيش اليوم ، وكل يوم فى شبح التهديد بالغزو الأحمر . كما خفّف الأنصار من حماستهم له . . وفى كلمة : إنه لم يعد كما كان العهد به صاحب شهرة وسطوة .

. . فإذا تحدث مثل هذا الجنرال أو ألقى بأمر أو نصح فقد لا يعيره الكثيرون اهتماماً ، وإذا جاء بفكرة أو رأى فقليلا ما تجد الأذن الصاغية أو النفس الواعية .

ولكن الأمر الذى أصدره الجنرال الصينى أخيراً ، ونشرته وكالات الأنباء العالمية فى ثلاث سطور هو بحق أمر خطير ، له أهميته وضرورته ؛ فإذا مرّ به

القارىء العادى من الكرام ، فان القارىء العسكرى ، وكل معنى بشئون الجندية لا بد أن يطيل دراسته ويأخذ بعبرته ويبشر برسالته .

* * *

لقد أصدر الجنرال كاى شيك الأمر لضباطه وجنوده يحذرهم من وضع نظارات الشمس على أعينهم أو لبس قبعاتهم فى وضع مائل !

وقد لا يستشعر القارىء أهمية هذا الأمر إذا لم يحط بأسبابه ودلالاته ومراميه .

.. ذلك أن مشكلة المشاكل وكبرى الكبائر فى العرف العسكرى هى التراخى والميوعة وعدم المبالاة ، أى الخروج على التقاليد العسكرية وأحكام الضبط والربط وحسن الانتظام .

وأخطر خطر على الجندى والجندية الانصراف عن الجد والاهتمام ؛ وترك النفس للهوى ؛ فيفسد الكيان العسكرى وتعم روح المرح والخلاعة وتطغى على روح الجهاد والتضحية ويكفى الناس أنفسهم مشقة بذل الجهود .

* * *

وقد كان من أسرار انهيار جيش فرنسا فى معركته الوحيدة عام ١٩٤٠ أن الضباط الفرنسيين كانوا يجيدون الرقص ويرتدون أفخم الثياب .. ولا يعرفون أين تقع « وارسو » !؟

كان الضباط الإيطاليون يؤثرون التسليم على القتال ؛ ولم يعتنوا بتنظيف أسلحتهم وإطلاقها عنايتهم بتصفيف شعورهم واستكمال وجاهتهم ! ومن دلائل

خذلانهم الداخلى فى معارك شمال أفريقيا أنهم حاولوا منع الألمان من ضرب بنغازى لأن بعض الضباط الإيطاليين كانت لهم فيها شقق مفروشة ! وعند ما دخل الحلفاء معسكر « نبيوه » وجدوا بعض الضباط فى بيجاماتهم . . وكامل زينتهم ! ؟

فهؤلاء وأمثالهم يؤثرون المظاهر والمناظر ، ويأخذون أنفسهم بالترف الذى لا يليق بالجنود .

* * *

من قبل ، وقف أمير الشعراء شوقى على سر مآسى الجيوش ، ووجه الأنظار — فى مسرحيته الشهيرة « قمبيز » — إلى أهمية الأخذ بروح الجندية وما تتطلبه من جد واستعداد وإقدام وتقشف ، نظر بنفسه الشاعرة فى هذه الأمور نظرة القائد الملهم والجندى المعلم فقال على لسان جندى يسأل صاحبه الآسيوى عن جيش مصر :

ولكن « أفيزوس » كيف الجنود . . . وكيف الحديد وكيف الزرد ؟

فردّ عليه قائلا :

أخى ما رأيت بمصر الجنود ... ولا طاف بالعين منهم أحد
سوى فتية من جنود القصور ... وضباطها فى الثياب الجدد
يروحون فى الخوذ اللامعات ... ويغدون فى الذهب المتقد

ثم أردف :

إن ورد السلم من كثرته ... ضيعت أنيابها فيه الأسود
واختلاف القوم فيما بينهم ... ضيع العزم وإن أبقى الحديد

فقال صاحبه معقباً :

إذنْ هو مُلك بلا حائط رقيق الأواسى ضعيف العمد
خلا الوكر من صرخات العقبات ونامت عن الغاب عين الأسد
أولئك لا فى حماة الديار ولا فى العديد ولا فى العدد
طواويس فى عرصات القصور تروق تهاويلها من شهد
ولا يعجبنك سلم يرف وخير يفيض ومال لبد
يهب عليها غداً عاصف من الفرس أنى تمشى حصد

***

نعم ، هنا مربط الفرس ! وسر المأساة . . فالضبط والربط هو قوام الجندية ، وبدونه لا يكون الجيش ناهضاً على أساس .

وقد عرف عن كبار القادة اهتمامهم بالضبط والربط قبل أى موضوع عسكرى آخر ، وروى تاريخ الحرب أن الجيوش التى تعتمد على الضبط والربط هى التى تثبت فى المآزق والشدائد ، فبالضبط والربط استطاع الإنجليز أن يتفادوا الدمار النهائى فى دنكرك ، وبالضبط والربط تمكن روميل من الإفلات واستطاع أن ينجو بجيشه من براثن الهلاك فى الصحراء الغربية .

إن الضبط والربط هو أساس التدريب ، والتدريب الجيد هو أساس النصر . .

أما النظارات الذهبية والخضراء والزرقاء . . وأما لبس القبعات فى وضع مائل ، فهذه من علامات الانحراف والتراخى والتسليم ، وقانا الله شرورها ومنّ علينا بنعمة الضبط والربط لنكون عند حسن ظن قادتنا وأمتنا .

بندقية الجنرال

نشرت الصحف صورة للجنرال ريدجواى قائد قوات الأمم المتحدة فى كوريا وقد أمسك بيده بندقية عادية مما يحملها الجنود وارتدى نفس الثياب حتى لا تستطيع العين أن تتبينه ممن حوله من ضباط وجنود ، وقد يدهش المتطلع إلى هذه الصورة إذا كان يتوقع أن يكون لمثل هذا الجنرال العظيم زى خاص تشيع فيه مظاهر الأبهة والفخامة ، وسلاح رقيق الصنع جميل المنظر لا يثقــل عليه ولا يتأذى من حمله .

ولكنها الحرب !

الحرب التى تعنى الدم والألم والدموع والعرق المتصبب .

الحرب التى لا تعرف المظاهر ولا تقيم وزناً للعلامات والنياشين وشارات الامتياز . . .

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم   وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها دميمة   وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتطحنكم طحن الرحى بثفالها   وتلقح كشافاً ، ثم تنتج فتيتم

هى الحرب ، تخضع لطبيعتها الصلبة جميع الأشياء والأشخاص . . والقادة أيضاً !
فما جعلت القيادة لتكون مظهراً للجاه والنعمى كما يظن قادة أيام السلم الذين يضعون الخطط على الورق المصقول ، ويحركون الجيوش الهيكلية بالدبابيس الملونة ، وإنما القيادة جهاد وتضحية ومسئولية عظمى تنوء بها أعظم الكواهل وأدهى العقول

وقد انتهى الزمن الذى كان القواد يحرصون فيه على الظهور والتميز ويعنون بأسباب الأبهة والفخامة ، فكان القائد يتقدم جنده على جواد أبيض وقد رفع على قلنسوته ريشة بيضاء ، وكان فردريك الأكبر يظهر بعباءته المشهورة وقفازاته الطويلة ويمد سبابته إلى الأمام فى اتجاه العدو ، وكان نابليون يتميز بمعطفه وقبعته وجواده الأبيض ومنظاره المكبر .

أنظر إلى كليوباترة ، وهى تستقبل فى شرفة قصرها مقــدم القائد الرومانى أنطونيو ، يبهرها منه هذا المظهر الرائع والهيئة الفاخرة فتترنم قائلة . . . على حد وصف أمير الشعراء :

هو والله نشيــدى   والمغنون جنودى

والمخاريق التى تخـ   ـفق من بعد بنودى

ولديها فارس ملثم   شاكى الحــديد

يتراءى فى عنان الجو   كالبرج المشيــد

ثم تقول :

هو ذا أنطونيو من   جانب الميناء أقبل

هيكل يحمـــله من صافنات الخيل هيكل
الرداء الأرجوانى على عطفيـه مسبل

أما اليوم . . فلا يستطيع القائد أن يكون هيكلا يحمله هيكل ، ولا أن يتراءى كالبرج المشيد ؟!

لقد تطورت الثياب والأزياء الحربية مع التطور الحربى المستمر فى جميع أشياء الحرب وفنونها ، وأصبح طابع الحرب الحديثة البساطة والمساواة حتى لا تستطيع أن تفرق بين القائد وضباطه وجنوده ، ولا تتبين من هؤلاء المتقدمين إلى وادى الموت تاجاً ولا نجما ولا وساماً ، وإنما حشد من الرجال فى زى واحد وسلاح واحد ومظهر واحد .

والحرب بطبيعتها تنطوى على الشدة والصلابة فلا تجدى معها الأناقة المسرفة ولا تسير فى ركابها المظاهر والعلامات ، وقد انتصرت جيوش نابليون ووشنطن وهانيبال وهى تسير جائعة عارية . . أما الجيوش التى حرصت على الأزياء المزركشة والمظاهر المترفة فلم تصلح قط لساحات القتال ولم تعرف حقاً ما هى الحرب ؟!

تدمير أسلحة ألمانيا

أصدر مجلس إشراف الحلفاء على ألمانيا قراراً بتدمير أسلحتها وعتادها الحربي تنفيذاً لما جاء فى المادة الثامنة من ميثاق الأطلنطى وهى « أنه ما دام لا يمكن المحافظة على أى سلم فى المستقبل إذا ظلت الأمم التى تهدد أو يمكنها أن تهدد جيرانها بالاعتداء تستخدم الأسلحة البرية والبحرية والجوية ، فهما — أى بريطانيا والولايات المتحدة — تريان أن تجريد مثل هذه الأمم من السلاح أمر جوهرى »

وهذه هى المرة الثانية التى يدمر فيها الحلفاء أسلحة ألمانيا . وكانت المرة الأولى عقب هزيمتها فى الحرب العظمى الأولى . وقد رأى بعض المراقبين أن ذلك القرار كان فى صالح ألمانيا إذ أنها تخلصت من السلاح القديم . . فكان من أسباب قوة استعدادها للحرب العالمية الثانية أنها لم تستخدم سوى أسلحة حديثة !

والحق أن ظاهرة التطور والارتقاء تشمل أسلحة الحرب بقوة وسرعة عجيبتين ، فقلما استخدم سلاح واحد فى حربين متتاليتين . بل كثيراً ما يحدث التطور فى أثناء سير القتال وقد رأينا كيف بدأت ألمانيا الحرب بأحدث الأسلحة وأشدها غير أن إنتاج الولايات المتحدة بدأ يحرز السبق منذ فاتحة عام ١٩٤٣ ، لا من ناحية العدد وحده ، ولكن من ناحية الجودة والسرعة ، وقوة النيران أيضاً .

ولما كانت الأسلحة من العوامل الرئيسية المؤثرة فى خطط الحرب وأساليب المقاتلين فان الأسلحة القديمة تكون وبالا على أصحابها ومدعاة لتأخرهم وضعفهم . وقد هزمت بولندا فى فاتحة الحرب المنقضية لأن فرسانها وجدوا أنفسهم عزلا أمام الدبابات ولأن مشاتها صعقوا من أهوال الطائرات وقل ، مثل هذا فيما حدث لفرنسا وممالك أوروبا الأخرى التى كانت تستخدم أسلحة عليها أختام سنة ١٩١٤ .

وقد كانت قوات المشاة فى الحرب العظمى تستخدم البندقية والسونكى وبعض الرشاشات، وهى اليوم تستخدم خمسة عشر نوعاً ، وكانت المدفعية نوعاً واحداً تختلف أحجامه ومعاييره ، وهى اليوم ثمانية وستون نموذجاً . وفى هذا الصدد يقول الجنرال ديجول : « لولا حرمة النصر الذى أحرزناه فى المارن، لما كنا نتمالك أنفسنا من الضحك على السيارات التى استخدمت فى هذه المعركة »

إن الدوائر العسكرية تتطلع اليوم إلى تطورات هائلة فى التسليح وخصوصاً فى القنابل والطائرات . ولهذا رأت الحكومة السويسرية أخيراً تأجيل بعض مشترياتها من الطائرات والأسلحة حتى يمكن أن تستفيد من التعديلات والتحسينات المنتظرة .

وهكذا نجد أن التطور يسير بسرعة شديدة ، وأن الأسلحة الجديدة تطرد الأسلحة القديمة من الميدان.

قرن الحرب العظمى

لم تعرف البشرية الحرب الأممية الجامعـــة ذات المجال الشاسع إلا فى القرن العشرين ولم يستطع رجال السياسة المعاصرون أن يحققوا فترة طويلة من السلم كما فعل أندادهم الذين حضروا مؤتمر عام ١٨١٥ فصنعوا التوازن الدولى ، ووضعوا نهاية للأحداث الكبرى — بعد حروب بونابرت — فعاش العالم فى أمن وسلام إلى قرابة المائة عام ولم يكن فى الجو غيم حتى حلقت فيه طائرات القرن العشرين وتطورت سرعة الحرب ، ومواصلاتها وخططها وأسلحتها التى تمخضت أخيراً عن القنبلة الذرية .

إن الجميع يحبون السلم ، حتى الرجل الذى اخترع الديناميت « ألفرد نوبل » رصد جائزة لأبطال السلام ! ولكن ذهبت الأمانى البشرية أدراج الرياح وأخفقت المحاولات الفردية والدولية فان القرن العشرين قد جاء يتقدمه « مارس » إله الحرب مستبشراً مهللا تتدفق فى ركابه الدماء وتزهق على مذبحه زهرات شعوب العالم حتى لا يبعد أنه يسمى فى التاريخ « قرن الحروب العظمى » . . هذا إذا استمر التاريخ بعد القرن العشرين ! ؟

وقد بدأ قرن الحروب أولى مشاهده فى قارتنا هذه (أفريقيا) بملحمة مشهورة

بين الإمبراطورية البريطانية وقبائل البوير (١٨٠٩ — ١٩٠٢) وهى الملحمة العجيبة التى تقرأ عنها الفصول الشائقة للمندوب الصحفى أو ضابط الفرسان الذى صار فيما بعد رئيس وزراء بريطانيا « ونستون تشرشل » .... فى هذه الحرب التى تبدو قليلة الأهميـــة لمن لا يعرفها قدمت بريطانيا رجالا من جميع أنحاء الإمبراطورية بين كندا واستراليا.

وكانت هناك ملحمة أخرى فى الشرق الأقصى فإن جماعة البوكسرز كانت تعمل لفكرة « الصين للصينيين » وتوقف التدخل الأجنبي بالإرهاب والتدمير ، وقد أحدث قتل أحد الدبلوماسيين الألمان أثراً سيئاً ثم جاءت حادثة محاصرة رجال السلك السياسى الأجنبي فى المفوضية البريطانيـــة فى « بكين » فقامت الحرب ضد البوكسرز بفرقة أجنبية مختلطة كانت فيها قوات من أمريكا لوقف هذا العدوان والقضاء على القائمين به (سنة ١٩٠٠) .

وفى هذه الأثناء كانت المعركة ناشبة فى الفلبين ضد قوات الولايات المتحدة وقد استغرقت ثلاثة أعوام عانت فيها القوات الأمريكية ويلات « حرب الغوريلا » فى الأحراش والمستنقعات ، ومن الطريف أن القائد الأمريكى فى ملحمة الشرق الأقصى الأولى كان الجنرال أرثر ماك أرثر ، والد الجنرال دوجلاس . الذى قاد القوات الأمريكية بالشرق الأقصى خلال الحرب العالمية الثانية ثم قاد قوات هيئة الأمم المتحدة فى الحرب الكورية .

واشتعلت نيران الحرب اليابانية الروسية عام ١٩٠٤ لأسباب منها استيلاء

الروس على منشوريا - أثناء ثورة البوكسرز - وقد انتصرت اليابان بحراً وبراً وقضت على الأسطول الروسى فى تسوشما عام ١٩٠٥ وهكذا أحرزت اليابان نصراً على الغرب حرك شهيتها للغزو وهز أطماعها للتقـــدم إلى الصف الأول بين الدول الحاكمة .

وكان البحر المتوسط مسرح معركة تاريخيـة بين عامى ١٩١١ - ١٩١٤ فقد سوّل ضعف الدولة العثمانية لإيطاليا احتلال طرابلس وبرقة . كذلك نشبت الحرب البلقانية الأولى لتحرير شعوب البلقان من حكم آل عثمان .

وفى عام ١٩١٤ قامت حركة فى النصف الآخـــر من الكرة الأرضية بين المكسيك والولايات المتحدة ، وبعملية يسيرة فى الفن الحربى احتلت الولايات المتحدة فيرا كروز .

ثم عادت البلقان ترقص على بركان فقد اغتال طالب صربى ولى عهد النمسا « الأرشيدوق فردناند » فى سراجيفو ، فأعلنت النمسا الحرب على الصرب التى سارعت روسيا إلى تعبئة قواتها لنجدتها وانضمت ألمانيا للنمسا وأعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب ، وهكذا بدأت الحرب العالمية الأولى وانتشرت بسرعة حتى عمت ثلاث أرباع الكرة الأرضية واستخدمت فيها ألمانيا الغواصات لتدمير مواصلات وتموين الحلفاء ومن أحداثها المشهورة إغراق الباخرة لوزيتانيا . . وقد كانت أعمال الغواصات الألمانية فى مقدمة الدوافع لدخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء .

وقد حدث تطور هائل فى الحرب باستخدام الطائرات التى بدأت تعمل فى إحراز النصر كذلك كانت الدبابات سلاحاً هجومياً قوياً .. وبهذين السلاحين أحرز الحلفاء النصر الأخير .

وانتهت الحرب العظمى عام ١٩١٨ وترددت فى العالم مسميات وعبارات سلمية قوبلت بحماس عظيم ومنها عصبة الأمم ومعاهدة فرساى ومؤتمر نزع السلاح وحرية الشعوب واستبشر الناس خيراً فقد ظن أن السلم المنشود توطد بعد الحرب التى شبّت لإنهاء الحرب ! ولكن الإنسانية صحت تتفقد الحلم فإذا حرب بين أستونيا ولاتفيا وأخرى بين تشكوسلوفاكيا وبولندا، حتى احتلت بلجيكاوفرنسا منطقةالرور الألمانية ونشبت ملحمة فى ألبانيا واستولى على أزمة الحكم «الملك زوغو الأول» .

وفى النصف الآخر من العالم شبت أربع عشرة ثورة وفى أفريقيا نشبت ملحمة بين إيطاليا وأثيوبيا فقــــد كان موسولينى يبحث عن إمبراطورية كما فعل نابليون من قبل ولم يكن عسيراً عليه أن يخلق احتكاكاً مع الحبشة العزلاء فيغزوها ويطرد عاهلها هيلاسلاسى عام ١٩٣٥ .

وفى الشرق الأقصى أخذت اليابان تجتاح منشوريا وشنجهاى منذ عام ١٩٣١ وفى أسبانيا نشبت الحرب الأهلية عام ١٩٣٦ وانتهت بانتصار الجنرال فرانكو وهيمنته على حكم أسبانيا بعد أن مهد الطابور الخامس له الطريق وساعدته ألمانيا وإيطاليا .

وبدأت نذر الطامة الكبرى تظهر فى قلب أوروبا فقد احتل هتلر إقليم السار وضم النمسا وتشكوسلوفاكيا ثم غزا بولندا فى أول سبتمبر ١٩٣٩ فبدأت الحرب

العالمية الثانية إذ أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب وفاء لتعهداتهما السابقة لبولندا وقد احتلت القوات الألمانية غرب أوروبا بسرعة، ومال رأى عام كبير إلى أن ألمانيا كسبت الحرب لكن أمريكا كانت تتحفز وبريطانيا تثير شعوب العالم . . . ثم قفز إلى كرسى رياسة الوزارة ونستون تشرشل وأخذ يتحدث عن الدم والعمل والدموع . . والعرق المتصبب ! ؟

وفى عام ١٩٣٩ أيضاً رفضت فنلندا الخضوع لسيطرة موسكو فدهمتها الجيوش الحمراء من ثلاث جبهات بأربع وأربعين فرقة وانتهت معركة الذئب والحمل باحتلال فنلندا .

وفى يوم الأحد ٧ ديسمبر من عام ١٩٤١ اعتدت قوات الأمبراطورية اليابانية على الولايات المتحدة على حين غرة ومع سبق الإصرار ، وهاجمت بيرل هاربور فهبت لرد الاعتداء .

وأخذ الحلفاء ينظمون خططهم لدحر قوات المحور بينما كانت المصانع الأمريكية تقدم أحدث أدوات الحرب وآلات الفتك والدمار، فمال ميزان الحرب وأخذت روسيا تكيل لألمانيا الضربات من الشرق بينما نزلت القوات الأمريكية فى شمال أفريقيا لمعاونة الجيش الثامن . وفى وقت واحد حدثت أكبر ضربتين فى الحرب العالمية الثانية إذ انتصر الروس فى ستالنجراد والحلفاء فى العلمين . . . وكانت بداية النهاية !

وتم تطهير ساحل أفريقيا الشمالى من قوات المحور ووثبت قوات الحلفاء إلى ساحل أوروبا الجنوبى وخرجت إيطاليا من الحرب وانتهى موسولينى . . .

وفى عام ١٩٤٤ وقع أكبر حدث من تاريخ الحرب المنقضية بفتح الجبهة الثانية فى غرب أوروبا وتدفق قوات الحلفاء على القارة أو (قلعة هتلر الأوروبية) وكان نجاح هذه العملية نذيراً بنهاية ألمانيا التى أقبلت عليها الجحافل الجرارة من الشرق والغرب والجنوب . ودخل الحلفاء برلين ورفعوا عليها أربعة أعلام وقسموها إلى أربع مناطق نفوذ .

أما فى الباسيفيك فقد جرت حرب طويلة متثاقلة انتهت باسقاط قنبلتين ذريتين على مدينتى هوريشيما ونجازاكى فاستسلمت اليابان .

وانتهت الحرب العالمية الثانية . . ولكن لم تنته الحرب نهائياً ؟ !

وعلى الرغم من هذه الويلات الفظيعة والأحداث الجسام التى ضاع فيها زهرة شباب العالم عادت الحرب من جديد فنشبت الحرب الأهلية فى اليونان تغذيها المساعدات الخارجية : الولايات المتحدة وبريطانيا من جانب ، والاتحاد السوفيتى من الجانب الآخر ، كما نشبت الحرب الأهلية فى الصين وانتهت بانتصار الحمر أخيراً كذلك قامت معارك التحرير فى أندونيسيا ضد هولندا ، وفى الهند الصينية ضد فرنسا ، كما نشب قتال بين البلاد العربية والصهيونيين فى فلسطين عام ١٩٤٨ . والحرب الكورية الأهلية عام ١٩٥٠ والاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ .

واليوم ونحن فى مطلع النصف الثانى من القرن العشرين نتساءل هل تستطيع الجهود المبذولة أن تقف الحرب الباردة ، وأن تقضى على أسباب التوتر بين الجانبين الشيوعى والديمقراطى ؟

وهل يكون النصف الثانى من القرن العشرين خيراً من نصفه الأول ؟

حديث عسكرى

مع أبى الطيب المتنبى !

إن مبادىء الحرب التى وضعها نابليون ، وما زالت إلى اليوم نبراساً يهتدى به رجال العسكرية ، قد جرت قبله على لسان المتنبى ، وطبقها فى حروبه سيف الدولة بن حمدان منذ ألف سنة ونيف . .

صحبت المتنبى أعواماً عدة استجلى جوامع كلمه واستقرىء روائع حكمه ، وقد هالنى أن تكتب عنه عشرات الكتب ومئات المقالات ، دون أن يظفر فن الحرب بحديث خاص ، وهو الشاعر المحارب الذى قال فى الحرب ثمانى عشرة قصيدة تحتوى على ٧٧٠ بيتاً ، والقائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قوتنا فى قوة الجيش :

قلت للمتنبى : إن بلاد العربية ، وقد نهضت حديثاً تكافح الاستعمار تتأهب

اليوم لإعادة ماضيها المجيد ، فلا مندوحة من تجهيز جيوش قوية تزود عن الحمى العربى ، ونحن بخاصة فى عالم تتطور شؤونه فى ظل القوة العسكرية .

قال المتنبى :

« أعلى الممالك ما يبنى على الأسل »

قلت : ولعله من الخطأ أن نتعلق نحن بخيوط السلم بينما الدول الأخرى تستعد للحرب ، وليس لنا أى مطمع فى التوسع أو رغبة فى الاعتداء على أحد .

قال :

« ولكن صدم الشر بالشر أحزم »

قلت : وما لم يكن لنا جيش قوى فلا يلبث الضعف أن يوردنا موارد الضياع برغم أن حقوقنا واضحة ومبادئنا مقررة ، وهى مبادىء تدعو للسلم وصيانة الكيان القومى والدولى واحترام كل أمة لحقوق الأخرى ، فقال :

الحق أبلج والسيف عوارى   فحذار من أسد العرين حذار

قلت : وهناك من يقول أن اشتراكنا فى منظمة هيئة الأمم يغنى عن الاستعداد الحربى ما دامت هذه المنظمة وغيرها تعمل على حماية السلم ومنع الحروب وذلك برغم ما تقوم به إسرائيل من اعتداءات غاشمة وهجمات غادرة ! فقال :

من اقتضى بسوى الهندى حاجته   أجاب كل سؤال عن هل بلم

. . فلا تعيروا القرارات والمناقشات والاتفاقيات اهتماماً بقدر ما تعيرون جيوشكم ، وأنت تعرف سياسة سيف الدولة فى هذا الصدد :

فلا كتب إلا المشرفيــة عنده ولا رسل إلى الخميس العرمرم

قلت : وقد أصبحت الحرب الحديثة حرباً عالمية شاملة فلا سبيل إلى العزلة أو الحياد .

قال : إن الأمة التى تخشى الحرب تخسرها ، وتخسر معها حقها فى الحياة !

فإن كان الخوف القتل والأسر ساقهم
فقد فعلوا ما القتـــل والأسر فاعل

سياسة الجيش :

وسألت المتنبي عن رأيه فى السياسة العامة التى يصح أن ينتهجها الجيش فقال :

ما دمتم معشر العرب ليس لكم أطماع خارجية ، فاجعلوا جيوشكم للدفاع عن حماكم ، فإذا ما بدرت من العدو بادرة ، قال الجيش كلمته . . هذا كان رأيي دائماً فى الخاص والعام من الأمور .

وما زلت طوداً لا تزول مناكبي
إلى أن بدت للضيم فى زلازل
ومن يبغ ما أبغى من المجد والعلا
تساوى المحايي عنـــده والمقاتل

قلت : هل تقصد من هذا أننا ننتهج خطة الدفاع ، ونقنع بالمقاومة فحسب ؟

قال : ما قصدت إلى هذا ، فالدفاع الذى أقصد هو حرمان العدو من الحصول على غرضه ، وأسلوب ذلك هو المبادرة إلى ضربه ، أما التزام الدفاع فى الحرب فعملية ناقصة ما لم يتبعها الهجوم ، وقد كان سيف الدولة حين يشتم رائحة الخطر يسارع إلى لقائه بعيداً :

يشق بلاد الروم والنقع أبلق   بأسيافه والجو بالنقع أدهم

وكان الروم على العكس من ذلك شاغلهم الأول الوقاية ، فسجنوا أنفسهم فى الحصون طلباً للسلامة ، وغطوا أجسادهم وخيولهم بالدروع خشية الأذى :

أتوك يجرون الحديد كأنما   سروا بجياد ما لهن قوائم

مبادىء الحرب

قلت : لقد وضع نابليون مبادىء الحرب التى تعد نبراساً مضيئاً يهتدى به رجال العسكرية فى كل زمان ومكان ، وهى :

(١) الغرض   (٢) الحشد
(٣) خفة الحركة   (٤) الاقتصاد فى القوة
(٥) السلامة   (٦) المفاجأة
(٧) الهجوم

قال : يالهذا الجنى ! إنه لا يعدو أن يكون منقباً فطناً أو ذاكراً ممتازاً . .

تُرى هل كان فى صفوف الروم فسمع بقولى ؟، أو حمل إليه أحد البطاريق شعرى !؟
فإن هذه مبادىء قد جرت جميعها على لسانى، وكان سيف الدولة يطبقها فى حروبه .

إن المبدأ الأول من مبادىء الحرب هو « الغرض » وضرورة المحافظة عليه ،
وهو عندى القضاء على العدو :

ألا ليست الغايات إلا نفوسكم   وليست لنا إلا السيوف وسائل

وما كانت تغيب عن سيف الدولة ظهور أعدائه بعد هزيمتهم ، فكان يتبعهم
أينما ذهبوا ولا يأل جهداً فى اللحاق بهم ، ولو فى أعالى الجبال :

تدوس بك الخيل الوكورعلى الذرا   وقد كثرت حول الوكور المطاعم

والمبدأ الثانى هو « الحشد » أو التجمع ، فالتفوق العددى والفنى فى الساعة
الحاسمة هو مجلبة النصر ، فهل تعرف كيف كان سيف الدولة يواجه أعداءه :

سار ولا قفر فى مواكبه   كأنما كل سبسب جبـل
يمنعها أن يصيبها مطر   شدة ما قد تضايق الأسل

وليس هذا المبدأ متعلقاً بتجميع الجيوش فحسب ، فقـــد كان العدو أيضاً
يجمعها ، وإنما كان سيف الدولة ينفرد بجمع العزائم وحشد قوى البأس والشكيمة :

يجمع الروم والصقـالب والبلـ   ـغر فيهـــا وتجمع الآجالا

والمبدأ الثالث هو « خفة الحركة » إذ لا بد من سبق العدو إلى « الغرض »

ولعلك تعلم أن الروم ما كانوا يشرعون فى عمـــل حتى يفاجئهم سيف الدولة بسبقهم إليه :

كلما أعجلوا النذير يسيرا   أعجلته جيـــاده الاعجالا
فأتهم خوارق الأرض ماتحـ   ـمل إلا الحديد والأبطالا

وكانت جياده خير الجياد ، ومن مزاياها السرعة واحتمال الأذى فكسب بذلك « خفة الحركة » :

قاد المقانب أقصى شربها نهل   على الشكيم وأدنى سيرها سرع

والمبدأ الرابع هو « الاقتصاد فى القوة » وهو غير الاقتصاد فى الدماء ! ذلك المبدأ الخاطىء الذى يتحدث به المرجفون . . وقد أدركت أن النصر بأقل عدد هو النصر الحقيق ، وكان قسم من جيش سيف الدولة يقوم مقام جيش بأكمله :

إذا زار سيف الدولة الروم غازيا   كفاها لمـام لو كفاه لمـــام

والمبدأ الخامس هو « الوقاية » أو السلامة وغايته اتخاذ التـــدابير التى تمنع المفاجأة ، وقد كان سيف الدولة حكيما فى « تكتيكه » لا يدع لعدوه منفذاً ، فإذا ما تم له النصر راح يطارده حتى يقضى عليه :

أكلما رمت جيشاً فانثنى هرباً   تصرفت بك فى آثاره الهمم

والمبدأ السادس هو « المفاجـأة » وهى عمل الشىء الذى لا يتوقعه العـدو ،

ولو خلت الحرب من المفاجأة لما فضل قائد على قائد. فالحرب الحقيقية هى أن تضرب خصمك من حيث لا يحتسب وتكر عليه فى مكان وزمان لا يتوقعهما.

فما شعروا حتى رأوها مغيرة قباحا وأما خلقها فجميـــل
سحائب يمطرن الحديد عليهم فكل مكان بالسيوف غسيل

والمبدأ السابع والأخير من مبادىء الحـــرب التى تعزوها لإمبراطور الفرنسيين ــ الذى لم أسمع به ــ هو « الهجوم » أى القيام بالحركات التعرضية التى تنطوى على مباداة العدو .. فالروح الهجومية هى التى تكسب المعركة :

طلعن عليهم طلعة يعرفونها لها غرر ما تنقضى وحجول

الحرب الخاطفة :

قلت للمتنبى : لم يدهشنى ما عرفت عنك من سحر بيانك وروعة منطقك قدر ما أدهشنى رأيك فى الشؤون العسكرية وبعد نظرك فى مسائل الحرب، فها نحن أولاء بعد ألف سنة نشهد الصراع على النحو الذى قلت، فهذه هى حرب البرق ..

قال : وما المقصود من هذا ؟ لعلها الحرب السريعة ؟ كما كان يجريها سيف الدولة :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا وما علموا أن السهام خيول

قلت : وقال لنا « كلاوفتز » ثم « فوش » : إن الهجوم خير وسائل الدفاع.

قال : إن الدفاع فى الاستحكامات هو الأسر لصاحبه، فهو يقيد حركاتهم

ويحرمهم من المبادأة التي لا غنى عنها فى الحرب . . ثم متى كانت الحصون حائلا ؟!

تمل الحصون الشم طول نزالنا   فتلقى إلينـــا أهلهـا وتزول

قال المتنبي : وإلى جانب هذا فلا بد من إحراز التفوق فى نوع الأسلحة ومركبات الحرب ، فمن الضرورى أن نمتلك أسرعها وأشدها ، فالخيل - مثلا - خير من الجمال :

وجيش إمام على ناقـة   صحيح الإمامة فى الباطل

فما ذا كان يستطيع أن يفعل أمام فرسان سيف الدولة ؟ :

خرجن من النقع فى عارض   ومن عرق الركض فى وابل
فلما بدوت لأصحـــابه   رأت أسدها أكل الآكل
بضرب يعمهم جائر   له فيهم قسمة العـادل

ثم قال : وينبغى أن نعلم أن السيف ليس هو الذى يقطع وإنما هى اليد الممسكة بالسيف ، وليس الذى يكسب المعركة هو السلاح وإنما الرجال الذين خلف السلاح .

« ولا يحمد السيف كل من حمله »

قلت : وكثيراً ما رأينا جيوشاً تسلم وأمماً تستسلم . . قبل المعركة !

قال :

أبصروا الطعن فى القلوب دراكا   قبل أن يبصروا الرماح خيـالا

قلت : وهناك أمم قبلت الاحتلال دون أن تبدى شيئاً من المقاومة ؟

قال :

وشر الحامين الزؤامين عيشة   يذل الذى يختارها ويضام

قلت : وقد لاحظت فى الحرب أهمية التدريب ، فكانت براعة القتال تظهر فى جانب مصحوبة بدقة الخطة وسلامة الترتيبات .

قال : إن للتدريب الجيد أثره فى الحرب ، ليس فقط للرجال بل للخيل أيضاً !

وأدبها طول القتال فطرفه   يشير إليها من بعيد فتفهم

شخصية القائد

وأخيراً قلت للمتنبي ، وقد طال بنا الحديث :

لقد حدثتنا عن الاستعداد للحرب وأصول القتال ، فهلا حدثتنا عن شخصية القائد ؟

فقال : على الفور :

« وكل أناس يتبعون إمامهم »

إن القائد هو رأس الجيش ، وأنك لتعرف الجيش من قائده :

إذا ما المعلمون رأوك قالوا   بهذا يعلم الجيش اللهام

والجنود يتأثرون بقائدهم ويحذون حذوه ، فإذا وجدوه مقداماً اندفعوا إلى

لقاء الموت غير هيابين . . وقد كنت أعزو النصر دائماً لشخص سيف الدولة، وكان وجوده كفيلا بالفوز وهو صاحب الفكرة وواضع الخطـــة ورائد الروح المعنوية :

نفسه جيشه، وتدبيره النصر وألحاظه الظبا والعوالى

إن مستقبل الجيش يتوقف إلى حد بعيد على شخصية القائد، فهناك القائد الباسل الذى يحترمه رجالة ويثقون فى كفايته وقوته :

امام الكتيبة تزهى به مكان السنان من العامل

. . وهناك القائد الضعيف الذى لم يظفر بنصيب من الدربة والمهارة وروح القتال، فلا يجد فى القيادة إلا مظهراً سامياً فحسب دون أن يحسب حساب خطرها وجلالها فشتان . . بين الرجلين :

ما الذى عنده تدار المنايا كالذى عنده تدار الشمول

الفهـــرس

مؤلفات البكباشي السيد فرج

القيادة والقادة العظام	أسلوب واضح البلاغة أنيق الصياغة مع قوة فى العرض وبراعة فى الأداء . جمال عبد الناصر
جيشنا فى فلسطين	آية من آيات العزة القومية والتمجيد للجندية . اللواء محمد شريف
حرب الصحراء المصرية	ملم بمقدمات هـذه الحرب وأطوارها ، وقلما اتصلت بالحرب مسألة إلا كان له إلمام بطرف من أطرافها . الأستاذ عباس محمود العقاد
الدفاع عن الوطن	يكشف عما تحتاجه مصر لاستكمال الدفاع عن كيانها فى عبارة صريحة دقيقة متزنة . الأهرام
القائد الجيد	يسر مدير المشاة كما يسر كبار ضباط المشاة أن يكون الفائز الأول فى مسابقة الموضوعات العسكرية : الصاغ السيد فرج « كتاب إدارة المشاة فى ١٩٥٣/٧/٤ » .
هذه هى الحرب	إن مؤلف « الرياضة فى بلادنا » الذى طلب إلينا بالأمس أن نكون رياضيين أصحاء يطالبنا اليـوم أن نكون عسكريين أشداء . اللواء محمد فتوح

و

قاهر العالم تيمورلنك

فى شمال أفريقيا

الهجوم على أوروبا

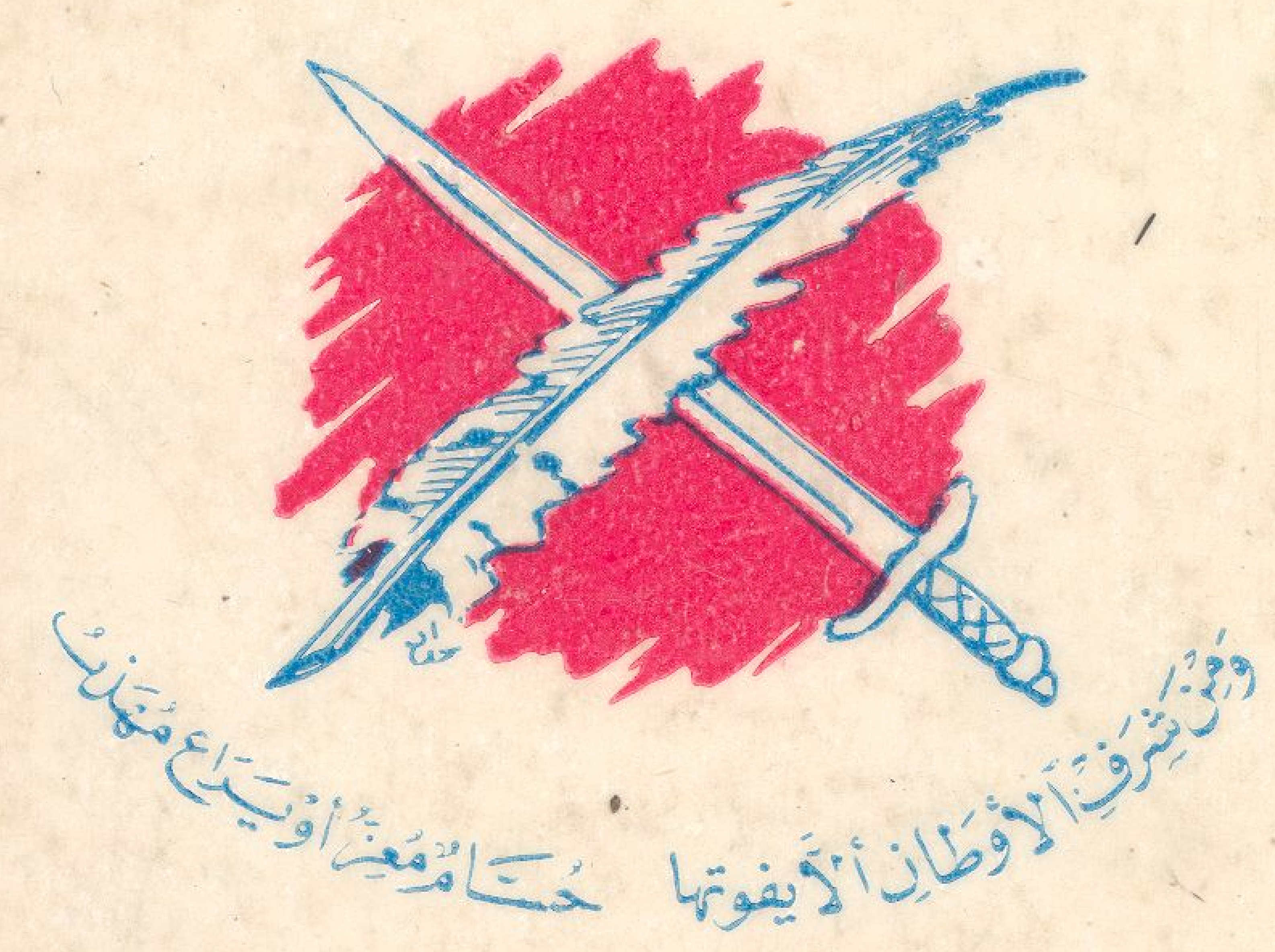
العالم بعد الهدنة

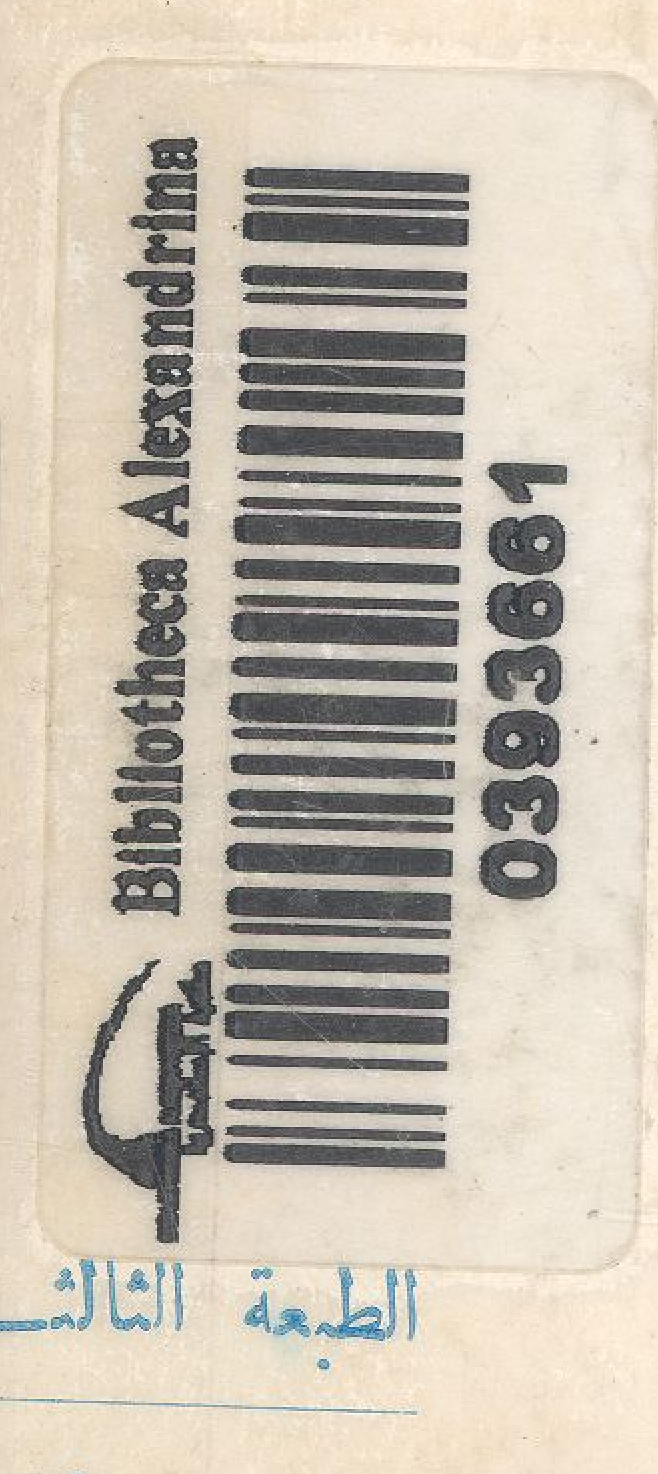
حروب محمد على

أحاديث فى الحرب

أبطال العالم فى الملاكمة

الرياضة فى بلادنا





الطبعة الثالثـ

الثمن ٢٥ ص

مطابع شركة الشمرلي بالقاهرة تليفون ٧٨٩٧٨